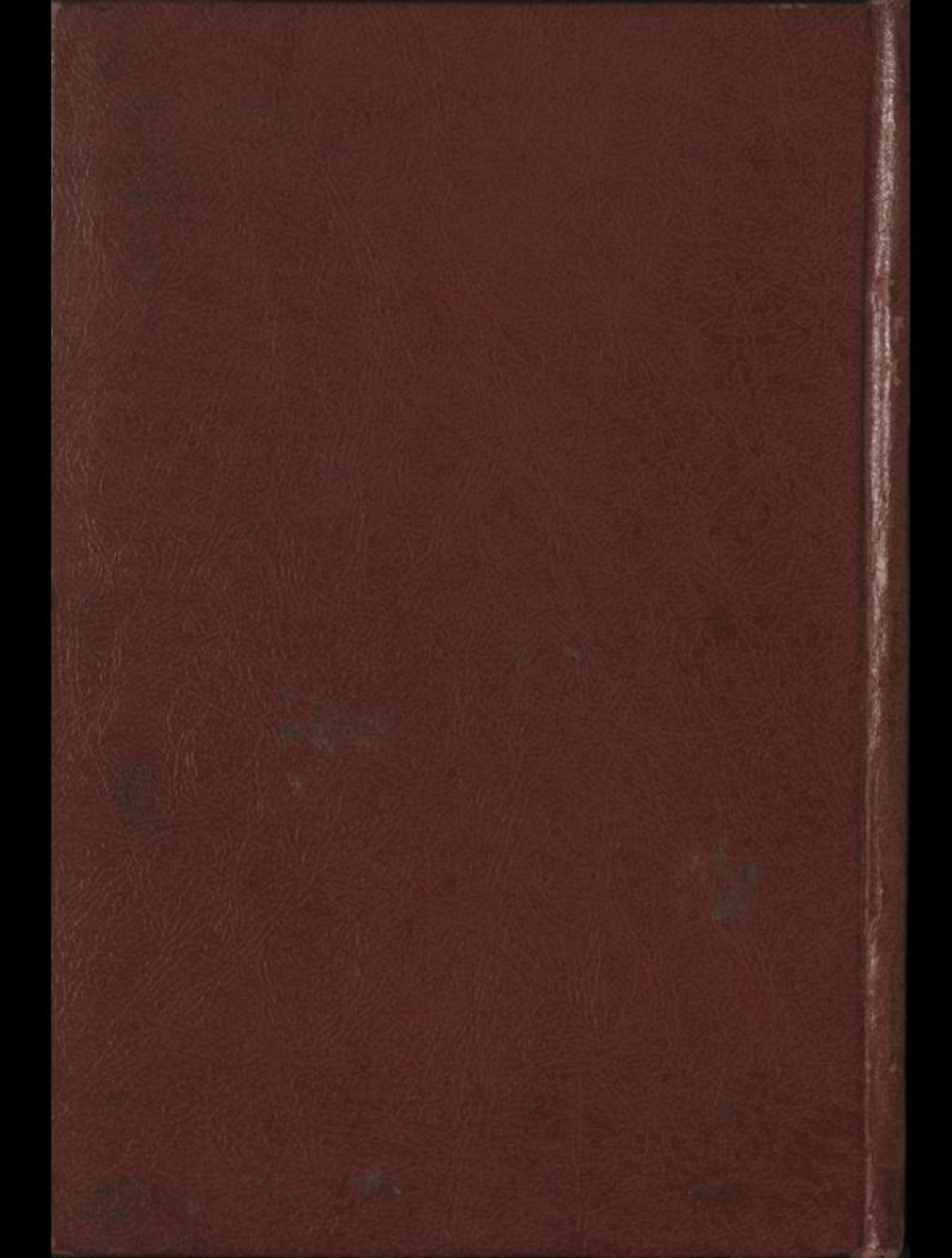


ص ٥٧ مسند الصادق

ص ٧٢، اعيان الشيعة ج ٤

المعجم الثاني ص ١٧٧

كتاب البحار ص ١٠٩

ص ١١٧ — وفد الشيعة، ص ١٠٠

مقاتل الطالبيين ص ٩ ...

شذرات الذهب ١٤٠، ص ٢٢

ص ١٢٠ — المقاتل ص ٢٨٨

عبد العزيز سيد الأهل

جعفر بن محمد

الإمام الصادق عليه السلام

ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد !

أبو حنيفة النعمان

دار الشرق الجديد

بيروت

الطبعة الاولى ، ايلول ١٩٥٤

تقديم

•

ليس يراد من هذا الكتاب أن يجمع للناس أخبار الصادق التي رويت عنه ، فهي أبعد من أن تُجمع ، وأكثر بعداً من أن تجتمع : أما بعدها عن الجمع ففي كل قطر منها اخبار ، وعند كل قوم وعصر منها آثار ، ولن تُجمع الا بسياحة ذات مشقة وزمن ورحلة الى كل أثر . واما بعدها عن ان تجتمع فلوفرة ما بينها من تضارب واختلاف ، ولغزارة ما فيها من صحاح وكذاب .

وليس يراد من هذا الكتاب أن يسير في ظل طائفة ليخرّج الأمور كما تهوَى ، أو في خارج ظلها ليخرّجها كما لا تهوى ، ولكنه أريد ان يكون كتاباً يَخْلُص الى جياد اخبار الصادق ، ويقصِد منها الى ما يوافق النفوس ويرضي الآراء ، نفوس المسلمين وآراءهم ، و بينهم ما لو شاءوا الاجتماع عنده والاتفاق عليه لم تضرِبْهُم الفرقة ولم يمزقهم التشتيت .

وأعود فأطلب الى القراء ـ منذ هذا التقديم ـ ألا أسأل عن عن أشياء لم أخض فيها ، وأشياء جاورتها ثم زلت عنها وهجرتها وشيكا ، وذلك لأني لم أستطع في الاولى أن أهتدي الى العلة التي تطمئن وتريح ، ولم أستطع في الثانية ان أجد طريقاً أتقصى في نهايته علماً . وحسب القراء ما جئت به ، فان لم يكتفوا فهو غاية جهدي ونهاية ظني .

وأنا لا أنكر ان هذا الحذر وهذه المباعدة انما كانا مما أصاب نفسي من قلق وحزن بسبب كثير مما ألصقه الرواة بالامام الصادق وأهل شيعته ـ من أهل شيعته وغيرهم ـ وقد أفرط هؤلاء وهؤلاء في الدعوة للفُرقة والعمل لها قصداً او عن غير قصد ، وقد كانت لهم في حياة الصادق وسيرته ما يكفي أن يكون مجداً وعظة وردعاً . ولكنهم لم ينتهوا ، وخلفوا لنا ـ وما زالوا يخلفون ـ ما يسوّد وجه كل نهار ، وكان أكبر الكارثة أن كثيراً منهم يفعل ما يفعله ويقص ما يقصه بدعوى تحقيق العلم وخدمة الحق ، والعلم من دعواهم صارخ ، والحقُّ من عطفهم برىء .

•

وفي حياه الصادق ـ حينما تُعرف خالصة مبرّأة ـ أمور نواصع وأضواء لوامع ، تزيد في فخر هذه الامة التي لم تتعطل مفاخرها ،

وتفتح سبلاً للهداية التي لم تغلق مفاتحها . وما اظن الصادق والأئمة من أهل البيت ـ حينما تعرف حياته وحياتهم كذلك ـ :الا كائنة من الدعامات التي تجمع هذه الأمة المجتمعة على ربها وكتابها ونبيها لم تتفرق قط ولن تتفرق ابداً .

ويخيل الي ـ وانا أكتب في جو من هذا الشعور ـ اننا سنجتمع ـ لا محالة ـ في جيل آت قريباً لا يعرف خلافاً او لا يأبه له ، كما اجتمع علي وابو بكر في صحبة رسول الله ونصرة دينه من بعده ، ثم امتزجا في أبنائهما حتى كان عند جعفر بن محمد أتم لقاء بين الدموين وأول الثمرات من الشجرتين .

ولم لا نجتمع او نرسل وراء الامل ظنوناً هواتف ! والناس في آفاق الأرض يلمون أنفسهم في جماعات ، وينتظمون في مبادىء ومذاهب ، ومع أن معظمها من صناعة المادة ولمعة الدنيا فانهم يرون فيها القوة ويظنون فيها العزة . والاسلام أجدر أن يلم أهله ويجمع شمله. والشمل لا بد به مجتمع والأهل لا بد به ملمومون ، ولم لا نجتمع أو نرسل وراء الأمل دعاء حاراً أو ظنوناً هواتف !

•

وان على الكتاب لواجباً للمسلمين وهم يكتبون ، يحملونه أنفسهم ويلزمونه أقلامهم : ذاك انهم يمسحون قلوب الناس بالرضا

ما استطاعوا ، ويرسلون بين ضلوعهم بَرْدَ المحبة ما اقتدروا ، ويفعلون ذلك دائبين لا يفزعهم غضب ولا تخيفهم مظنة ، وهكذا أردت أن أحمل عبئي فصرخت بجعفر بن محمد في آذان الناس لتسكب سيرته في قلوبهم المحبة وترسل في ضلوعهم بَرْد الود وهدأة الرضا .

وجعفر بن محمد ـ غير أن كان إماماً ـ مفخرةٌ من مفاخر المسلمين ، لم تذهب قط ، وانما بقي منها في كل غدٍ قادم ـ حتى القيامة ـ صوتٌ صارخٌ من حروفها يعلم الزهاد زهداً ويكسب العلماء علماً ، يهدّيء المضطرب ويشجع المقتحم ، يهدّ الظلم ويبني للعدالة ، وهو ينادي المسلمين جميعاً أن هلمّوا واجتمعوا ، وان قوماً لم يختلفوا في ربهم وفي كتابهم وفي نبيهم لمجموعون ـ مهما اختلفوا ـ في يوم قريب .

وما بالمسلمين اذا اختلفوا في الفقه والرأي ! فانّ ذلك كان هبةَ الحرية التي منحها الاسلام العقول ، فَتجَرَتْ في مناهج وسلكت سبلا ، واختلاف الرأي لا يفسد ودّ الناس متى كان في حياطة العصمة من الفساد والبعد من الضلال .

ذلك قولي ، وبه أردت وجه الله ، والله على ما أقول شهيد .

عبد العزيز سيد الاهل

مودة الكِرام

•

مكارم خصمين

لما رفرفت ألوية النصر على علي بن أبي طالب وباد الناس من حول الجمل الانكد [1] - أبادتهم حدائد بني هاشم - نادى منادي علي في القوم : ألا لا يُجْهَزْ على جريح ، ولا يُتْبَع مُوَلٍّ ، ولا يُطعن في وجه مدبر ، ولا يُقتل أسير ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن [2]

ثم مضى علي - كرم الله وجهه - يتصفح وجوه القتلى ، وينفض التراب بيده عن وجوه أصحابه الذين حاربوه ، وعن وجوه ابنائهم [3] ، ويرثى لهم فزعاً متململاً ، ويتمنى - صارخاً بأمنيته

---

(١) الذي وصف جمل عائشة بالانكد هو أبو العلاء المعري : قال في قصيدة الجني برسالة الغفران :

والجمل الأنكد شاهدته بئس نتيج الناقة العنتريس

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٩ — الخراج لأبي يوسف ص ٢١٥

(٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٣

صادقاً ـ أنْ لم يكن كل ذلك الذي جرى أو أقله أو شيء منه ، ويمضي باكياً مشفقاً يقول : شفيتُ نفسي وجدعت أنفي !

حتى اذا انتهى الوصيّ الى أم المؤمنين عائشة ، وقف بها جليلاً مهيبا ـ لم تطغه النصرة ولم يبطره الظفر ـ يقول لها : ايهاً يا حميراء ! ألم تنهيْ عن هذا المسير ؟ فقالت عائشة : يا ابن أبي طالب : قدرتَ فأسجح [٤] . ولم يرمْ علي من مكانه ولم يتحول ، فقال لها : غفر الله لك يا أمه ! فقالت ، ولك ، ما أردتُ الا الاصلاح ! فقال امير المؤمنين : اخرجي الى المدينة ، وارجعي الى بيتك الذي أمرك رسول الله أن تقرّي فيه ، فقالت عائشة ولم تتردد : اني أفعل [٥]

●

وأمر علي بن ابي طالب ان يُسارَ بأم المؤمنين الى بيتها بالمدينة ، في كوكبة من جند النساء ، لم يُسيّر مثلُها في الاسلام ولا العرب من قبل ، في اربعين فتاة او سبعين ، من ذوات الفضل والشرف ، من بنات عبد القيس [٦] قد لبسن ملابس الجند من الرجال ، وأمرهن أمير المؤمنين أن يمضين ثم يعدن اذا وافين بعائشة المدينة واستقرت في بيتها كما أمرها رسول الله .

---

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٩

(٥) اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٠ — شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢

(٦) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢ — اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٠

وكان علي ـ كرم الله وجهه ـ قد قال لمحمد بن أبي بكر ـ وكان مع علي في قتال عائشة ـ : تقدم الى أختك فانظر هل وصل الى أختك شيء ؟ فعاد اليه يقول : أصابَ ساعدها خدش سهم دخل بين صفائح الحديد ، فقال علي : سر معها حتى توصلها المدينة في كوكبتها وعجّل اللحوق بي الى الكوفة . فقال محمد : أعفني يا امير المؤمنين ، فقال علي : لا أعفيك ، وما لك بدّ [7]

وُجهِّزَتْ عائشة ، وأقبلت بنات عبد القيس في ثياب الجند يحطنها ويخدمنها ، وتهيأ محمد بن أبي بكر ليسير دليلاً لهنّ ، فلما تم كل ذلك أقبل علي بن ابي طالب امير المؤمنين واحتشد حوله أبناؤه من فاطمة الزهراء ومن غيرها يودعون جميعاً ام المؤمنين [8] ، وكان علي واولاده فيما فعلوا أجلّ من المهابة وأهيب من الجلال ، ولم تَبْدُ منهم بادية شماتة ، ولم يفترّ لهم ثغر بزهوة انتصار .

•

ووقع في نفس عائشة الحزن ، لا لأنها لم تنتصر ، ولكن لأنها مضت في الغلطة حتى استفحلت، وخاضت في الفتنة حتى قَتَلَتْ ـ وهي الذكية الصديقة ـ وحتى لو لم تكن على ذكاء فان رسول الله أنبأها ، وكانت الشبهة كفيلة بردّها عما أقدمت عليه ، ولكنها

---

(٧) الاخبار الطوال ص ١٤٣

(٨) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢

غُلِبَتْ ، فمرّ القدر المكتوب على قنطرة من الشك والتردد ، لأنه أراد أن ينفذ كما يريد .

ومن ثَمّ لزمت بيتَها الذي امرها رسول الله أن تقرّ فيه . وطالما عاودها الندم فبكت ، ثم ما زال الحزن ينمو معها كما نمت حتى طغى وصرخ ، وعدّت عائشة نفسها من الذين كانوا لانفسهم من الظالمين .

قال عقبة بن صَهْبَان : سألت عائشة عن قول الله : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » فقالت لي : يا بنيّ ، كل هؤلاء في الجنّة ، فأما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من اصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك . قال عقبة : فجعلتْ نفسها معنا ٩

وظلت عائشة كذلك، حتى اذا وافاها الأجل سألوها أن تدفن مع رسول الله وصاحبيه فامتنعت وأوصت أن تدفن مع صواحباتها بالبقيع ، فقد أحدثت بعد رسول الله حدثاً ، ولقد جاءها ابن عباس يهدىء روعها عند الموت ، وتكلم فأكثر ، فقالت له: دعني منك

---

(٩) طريق الهجرتين ص ٢٣٧

يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده لوددتُ اني كنتُ نسياً منسياً [10]

ويالهم من قوم! كلهم كالحلقة المفرغة والسبيكة المسبوكة صياغة وإحكاماً، فعليّ لم يطغه الظفر ولم يُنْسِهِ أدبَ الانتصار، وعائشة لم تنسها الهزيمة ندماً على الخطأ وحسرة على الغفلة، ومحمد بن ابي بكر أهمل الاخوّة ليؤدي حقوق الطاعة لصاحب الامر، ثم رجع مخلصاً طائعاً ليؤدي حقوق الاخوّة. ثم هؤلاء الصفوة الانجاب أولاد فاطمة الزهراء الذين وقفوا يودعون بنت أبي بكر وداعاً نبيلاً، ثم هذه عائشة التي يقال لها وهي تجود بنفسها: أتوصين ان تدفني مع رسول الله وصاحبيه؟ فتقول: ادفنوني مع اخوتي بالبقيع، فلقد أحدثت حدثاً بعد رسول الله!

أولاد أبي بكر

وكانت عائشة بنت ابي بكر من أم يقال لها «أم رومان» بنت الحارث، من بني فراس بن غُنْم بن كنانة، وأسلمت أم رومان قديماً قبل الهجرة وتزوجها الصديق [11] فولدت له عائشة وعبدالرحمن وشب عبد الرحمن بن ابي بكر شقيق عائشة شجاعاً رامياً، قَتَل يوم اليمامة سبعةً من كبار المشركين [12]. وأما محمد بن ابي بكر فكان

(١٠) صفة الصفوة ج ٢ ص ١٩
(١١) صفة الصفوة ج ٢ ص ٣٢
(١٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٣٩، ٢٥٩

من أسماء بنت عميس ، تزوجها جعفر بن ابي طالب ، فلما مات عنها تزوجها أبو بكر ، ثم مات عنها ولم يزل محمد ابنها صغيراً [١٣] فتزوجها علي بن أبي طالب ، وضمّ اليها ابنها محمداً ، فكان لعليّ ربيباً .

وقاتل محمد بن ابي بكر مع عليّ يوم الجمل ، ثم ذهب محمد والياً على مصر من قِبَل علي ، فلما غلب معاويةُ بن ابي سفيان على البلدان قتلَ معاوية بن حُدَيج الكندي محمدَ بن أبي بكر ، فوجد علي بن ابي طالب على محمد وجداً عظيماً وقال : كان لي ربيباً ، وكنت أعدّه لي ولداً ولأولادي أخاً ! وسمعتْ امه أسماء بنت عميس بقتله فكظمت غيظها حتى شخبَتْ ثدياها دماً [١٤]

ولم تنس عائشة نصيبها في المصيبة بأخيها محمد ـ وان كان قد حار بها يوم الجمل ـ فضمّت اليها اولاده ترعاهم وتحسن الوفاء الى اخيها فيهم مع كراهة شقيقها عبد الرحمن لما فعلتْ ، وقد كان يودُّ هو ان يقوم بكفالتهم دونها ، ولكنه استحيا منها فترك الامر لها .

قال القاسم بن محمد بن ابي بكر : لما قتل ابي محمد بن ابي بكر بمصر جاء عمي عبد الرحمن بن ابي بكر فاحتملني انا واختا لي من

---

(١٣) المعارف ص ٧٥

(١٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٣٨ — اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٠

مصر ، فقدم بنا المدينة ، فبعثت الينا عائشة فاحتملتنا من منزل عبد الرحمن اليها ، فما رأيتُ والدة قطّ ولا والداً أبرّ منها ، فلم نزل في حجرها .

ثم بعثتْ الى عمي عبد الرحمن ، فلما دخل عليها تكلمت فحمدت الله عز وجلّ واثنت عليه ، فما رأيتُ أبلغ منها ! ثم قالت: يا اخي ، اني لم أزل اراك معرضاً عني منذُ قبضتُ هذين البنيّينْ منك ، ووالله ما قبضتهما تطوّلاً عليك ، ولا تهمة لك فيهما ، ولا لشيء تكرهه ، ولكنك كنت رجلاً ذا نساء ، وكانا صبيّين لا يكفيان من أمرهما شيئاً ، فخشيتُ أن يرى نساؤك منهما ما يتقذّرن به من قبيح أمر الصبيان ، فكنتُ ألطفَ لذلك وأحقّ لولايته . فقد قويا على أنفسهما وشبا وعرفا ما يأتيان ، فها هما هذان ،فضمهما اليك [15] . فضمهما عبد الرحمن .

أولاد الفتيات

وكان محمد بن ابي بكر أحد الثلاثة الذين تزوجوا ببنات يزدجرد بن كسرى حين جيء بهن سبايا من حصون كابل [16] واراد عمر بن الخطاب بيعهن ، فلم ير علي بن ابي طالب ذلك وأشار

---

(١٥) الدر المنثور ص ٢٨٢
(١٦) زين العابدين ص ١٥

بالمغالاة في اثمانهن ،وأن يختزن الرجال ،ونزل عمر عند رأي صاحبه، فاختارت احداهن الحسين بن علي ، وكانت الثانية لعبد الله بن عمر، والثالثة لمحمد بن ابي بكر .

ثم قدر لهؤلاء الفتيات الكسرويات ان يلدن في قريش خير اهل الارض في زمانهن عبادة وزهداً ،فولدت الاولى علي بن الحسين زين العابدين ، وولدت الثانية سالم بن عبد الله بن عمر ، وولدت الثالثة القاسم بن محمد . وجاء هؤلاء اخوةً في الخؤولة كما كانوا اخوة في العمومة ، من آباء اصدقاء تزري صداقاتهم بالاخوة مهما اشتدت روابطها وتأصلت مواريثها ، ومن امهات اخوات يربط بينهن الدم بأقوى من رباط الصداقة وجوامع الآمال .

ومن قبلُ قضى الاسلام على عصبية الجنس ، فجاء هؤلاء حجةً للاسلام على ما فعل ، فقد صار اولاد الفتيات في الطليعة من زهاد المسلمين وعلمائهم ، وصارت أمنية كل فتى من قريش أن يتزوج من فتاة ، وجاءت الاموية حيناً بمحاربة الفكرة وتغليب العنصر ، ولكنها ما لبثت ان ارتدت عن حربها لما صَليتْ به من نيران الحجج والآيات .

من أبي بكر

وشب القاسم بن محمد ، فما أدرك أهل المدينة أحداً يكاد يفضل

عليه غير الخُلَّص من بني هاشم وبني عبد المطلب ، حتى ان عمر ابن عبد العزيز كان يقول كما ذكره : لو كان لي من الامر شيء لوليت القاسم بن محمد الخلافة [١٧] فقد كان ثقة كريماً لا يفتي الا بما يعلم، ويرى الجهل بالمرء خيراً له من ان يقول ما لا يعلم ، وما كان يجيب الا فيما يظهر له من الاشياء ، وكثيراً ما استفتاه الناس فقال لهم : لا أعلم ، لا أدري !

واستبحر القاسم بن محمد في علم الحديث ، وأسند عن ابيه وعن جماعة كثيرة من اصحاب رسول الله : ابن عباس وأبي هريرة وأسلم الفقيه النبيل مولى عمر . وكان القاسم من الآخذين عن عائشة ، وأحد الذين لا يكادون يتجاوزون قولها والتفقه بها [١٨] . ولم يتردد القاسم لفضله ان يأخذ بعض الفقه عن طريق عثمان . ومن كمال الفضل ان يذهب القاسم بن محمد وراء الرواية من هذا الطريق ، بينما كان ابوه محمد ممن تعرضوا لعثمان . وقد رووا عن القاسم انه قال : ان الفرافصة بن عمير الحنفي قال : ما اخذت سورة يوسف الا من قراءة عثمان بن عفان اياها في الصبح ، من كثرة ما كان يرددها [١٩]

---

(١٧) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩ ؛

(١٨) شذرات الذهب ج ١ ص ٦٢ — تيسير الوصول ج ٤ ص ٢٣

(١٩) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٠٧

وقد عُمِّر القاسم طويلاً وذهب بصره في آخر عمره [٢٠] ومات سنة ثمانٍ ومائة وهو يحجّ أو يعتمر، مات بمكان يقال له قُدَيْد [٢١]. ولم ينس القاسم نفسه وهو يموت، فوضعها في مكانها السامي من التواضع فقال لابنه - وكان معه - يا بني، سُنَّ عليَّ التراب سنّاً [٢٢]، وسوِّ على قبري، والحق بأهلك، واياك ان تقول: كان أبي وكان! [٢٣]

وكان قد ولد لعبد الرحمن بن ابي بكر شقيق عائشة - فيمن ولد له - بنتٌ سماها أسماء، جاءته من فتاة امّ ولد، فلما آن لابن عمها القاسم ان يكبر وان يتزوج، مال الى ابنة عمه اسماء فتزوجها، فرزق منها بابن وابنة هما عبد الرحمن وام فروة [٢٤]. وكذلك اجتمع في اسماء والقاسم بيتان لابي بكر الصديق، واشتد بهما الامتزاج بين بيت أم رومان وبيت أسماء بنت عميس.

---

(٢٠) المعارف ص ٢٥٤

(٢١) قديد بالتصغير اسم موضع بين مكة والمدينة وهو الى مكة اقرب — معجم البلدان ج ٧ ص ٣٨

(٢٢) سن التراب = وضعه وضعاً سهلا.

(٢٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٠

(٢٤) المعارف ص ٩٤ — مقاتل الطالبين ص ١٠٩

من علي

واما زين العابدين علي بن الحسين فجاء سيد الناس في زمانه وغير زمانه ، وقد هال معاصريه جلال قدره وعظم شأنه ، فظنوه غاية ما يرتفع اليه بيت الحسين ، ولم يكونوا يظنون انه يلد من يضارعه في الفضل او يشابهه في النبل ، ولكن الله أخلف ظن الناس بابنه محمد .

تزوج علي زين العابدين من فاطمة بنت عمه الحسن بن علي ، فاجتمع منه ومن فاطمة بيتان لعلي ، واشتد في محمد بن علي الامتزاج بين السبطين الحسن والحسين . وما لبث محمد بن علي أن ظهر بالعلم والزهد والفضل والسؤدد ، ثم ما لبث ان تحول اليه الفضل كله فلم يظهر على احد من ولد الحسن والحسين من علم الدين والسنن وعلم القرآن والسير وفنون الأدب والبلاغة ما ظهر من محمد بن علي [٢٥] ثم تبقر محمد في العلم وتوسع فيه حتى سمي بالباقر ، وهو لقب لم يسبقه احد اليه .

وقيل ان محمداً الباقر ولد يوم الجمعة ثالث صفر سنة سبع وخمسين قبل مقتل جده الحسين بثلاث سنين [٢٦] ثم شب في رعاية أبيه

---

(٢٥) الفصول المهمة ص ١٩٢

(٢٦) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٨٦

بالمدينة فتىً أسمر معتدل القامة ممتلئاً [27] وعالماً زاهداً جواداً . أما علما فقد رأى العلم أغلى من العبادة قيمة وأجل قدراً ، ورأى العالم ينتفع الناس بعلمه أفضل من الف عابد [28] . وأما زهداً فقد كان رأيه في الدنيا رأي جده علي : عمرٌ قصير وخطر حقير . وأما جوداً فقد كان – مع كثرة عياله وتوسط حاله – يجود بما يسد الخلة وبما يغني من الفقر ، كان يجود بمئات الدراهم والوفها ، فاذا رأى المعروف مستوجباً الخروج من المال كله بذل المعروف ولو لم يُبق عنده شيئاً [29]

وعاش الباقر في حياة أبيه زين العابدين ثلاثين سنة او نحوها، فلم يبق من فضل لزين العابدين الا قبس منه الباقر وأشعل ضوءاً ، ثم عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة أو نحواً منها ، ووافاه أجله سنة سبع عشرة ومائة [30] ومات وهو في السابعة والخمسين .

الوصي والصديق

وكما كان الاجداد محبة ووداً كان الآباء ثم الأحفاد ، وكان من تيار ذلك الود الذي لم ينقطع ان خطب محمد الباقر أم فروة بنت

---

(٢٧) الفصول المهمة ص ١٩٣

(٢٨) مطالب السؤول ص ٥١ — الفصول المهمة ص ١٩٥

(٢٩) الفصول المهمة ص ١٩٧

(٣٠) المعارف ص ٩٤

القاسم بن محمد واسمها قريبة او فاطمة [31]. وأبواهما أولاد خالة. ومن الشرف الباذخ ان يتزاوج أحفاد علي وابي بكر. ومن زيادة الفضل ان يتزوج امام من اهل البيت بفتاة ابوها ربيب عائشة الصديقة وابن أخيها الذي كان لعليٍّ أبي الأئمة ابناً و ربيباً.

وحيث رجع نسب محمد الباقر الى جده علي بن ابي طالب مرتين: من طريق ابيه علي بن الحسين وامه فاطمة بنت الحسن - رجعت ام فروة لجدها ابي بكر مرتين: من طريق ابيها القاسم وابنة عمه اسماء بنت عبد الرحمن. ثم تزوج محمد الباقر بن زين العابدين بأم فروة بنت القاسم بن محمد فولدا جعفراً.

هكذا كان. وهكذا قدر لفتى من سلالة فاطمة الزهراء وفتاة من سلالة ابي بكر الصديق - والقدر لا يجري الا بخير - قدر لهما ان يلدا فتى ليس له ولا للناس جميعاً - مهما احتالوا - ان يفصلوا اجزاء دمه فيقولوا: هذا من علي وهذا من ابي بكر، لأن الفتى كله كان ميراثاً من الوصي والصديق. ولا فرق بينهما مهما فرّق الناس، ولا حيلة مهما احتالوا. وهذا الفتى الذي ولد يجمع كل خصائص الخير وخصال الود في ميراث دمه هو جعفر بن محمد بن علي زين

---

(31) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٨٩

العابدين ابن الحسين السبط ابن علي الوصي ، وهو ابن ام فروة [٣٢] فاطمة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق .

ولقد رأى جعفر بن محمد في انتسابه لأبي بكر مفخرة له طالما حدث عنها وباهى بها ، فكان كثيراً ما يقول : ولدني الصديق مرتين ، وانا ابن الصديق مرتين [٣٣]

وحتى محمد الباقر ابو جعفر ولم يتزوج بكرية كان يحتفي بأبي بكر ويذكر اسمه ، قالوا ان محمد بن علي تحدث ذات مرة عن ابي بكر فقال : الصدّيق ، فقال له رجل ممن حضر مجلسه : وتقول الصدّيق؟ فقال محمد : الصدّيق الصدّيق ! انه صدّق جدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من لم يقل الصدّيق فلا صدّق الله قوله دنيا ولا آخرة ! [٣٤]

ومن قبل الباقر ابوه زين العابدين فانه لم يخض فيما كان بين صحابة رسول الله ، ولم يرض ان يثير الناس عنده ثورة الخلاف

---

(٣٢) كان لهم بالتكنية بأم فروة عناية ، فأخت ابي بكر كنيت به وهي التي تزوجها الاشعث بن قيس ، وسميت به بنت القاسم بن محمد ثم سمى جعفر الصادق بنته الوحيدة به .

(٣٣) نور الابصار ص ١٤٥ — اسعاف الراغبين ص ٢٢٧ — النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨ — تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٨٧ — غاية الاختصار ص ٦٢ — اعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٨٩

(٣٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦١

وطردهم من مجلسه [٣٥]. وقد ذكر الذهبي باسناد عن محمد بن فضيل عن سالم بن ابي حفصة قال: سألت ابا جعفر محمد بن علي وابنه جعفراً عن ابي بكر وعمر فقالا: ياسالم، تولّهما وابرأ من عدوّهما فانهما كانا امامي هدى رضى الله عنهما. وقال جعفر: يا سالم، أيسبُّ الرجل جده؟ ابو بكر جدي ... وروي عن زهير بن محمد مثل ما روي عن ابن ابي حفصة [٣٦]

جعفر بن محمد

وولد جعفر بن محمد بالمدينة سنة ثمانين [٣٧]، سنة سيل الجحاف [٣٨] او سنة ثلاث وثمانين. وفي راجح الظن انه ولد في بيت جده زين العابدين، في الفناء الواسع ومباذل الجود والسخاء، ومن الحتم انه رأى جده، وحان له ان يتأثر به و بالحياة التي كان يحياها من العبادة والزهد والعلم والفضل والوفرة والجود، وقد حان له ذلك لأن جده مات سنة سبع وتسعين، فقد عاش جعفر في كنفه

---

(٣٥) زين العابدين ص ٨٤

(٣٦) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥

(٣٧) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٤ — وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩١

(٣٨) الجحاف كغراب سيل يجرف كل شيء ويذهب به قال الطبري بعد العنعنة: جاء السيل حتى ذهب بالحجاج ببطن مكة وبلغ الركن وجاوزه، ولقد كانت ترى الابل عليها الحمولة والنساء يمر الناس بهم وما لأحد فيهم حيلة: الطبري ج ٥ ص ١٣٨.

ما بين عشرة اعوام واربعة عشر عاماً، وهن سن الغلام التي تنطبع فيها مشاهد الحياة التي يراها مؤثرة مدوّية، ثم يُصدر عنها متى حان له ان يصدر، حيث تتم له المواهب وتنمو الخصال .

وشب جعفر آدم اللون معتدل القامة كأبيه محمد [٣٩] . ولكن اخباره تكاد تغيب في حياة أبيه، وما كان ذلك الا للتقليد الشاق الذي طبع على اتّباعه اهل البيت، لولا ما قيل من انه كان يقول بالرأي مع ابيه احياناً .

أهل البيت

وان لأهل البيت لأدباً ينفردون به عن الناس : يوقر صغيرهم كبيرهم، ويجل مفضولهم أفضلهم، ويرحم كبيرهم صغيرهم بما لا شبيه له في البيوت الاخرى . اذا حكي من آدابهم شيء خيل لمن يسمع أو يقرأ أن التأدب في هذا البيت كان فرضاً ثقيلا وحملا فادحا، فانهم ليقولون لن الحسين ما كان يتحدث اذا ارتفع صوت أخيه الحسن بالكلام، وان محمد بن الحنفية لم يتكلم اذا تكلم الحسين، وان زينب بنت علي أمسكت عن المقالة عند يزيد بن معاوية حين همّ أخوها زين العابدين فأراد أن يتكلم [٤٠] :

وانّ من أخبارهم في توقير صغيرهم كبيرهم لعجبا ! : قالوا :

---

(٣٩) الفصول المهمة ص ٢٠٥

(٤٠) زينب عقيلة بني هاشم ص ٨٩

أتى رجلٌ الى الحسن بن علي يسأله ، فقال الحسن : ان المسألة لا تصلح الا في غرم فادح أو فقر مدقع أو حمالة مفظعة [41] فقال الرجل : ما جئت الا في احداهنّ ، فأمر له الحسن بمائة دينار . ثم مضى الرجل الى الحسين فسأله فقال له مثل مقالة أخيه فردّ الرجل بمثل ما كان ردّ ، فقال الحسين : كم أعطاك الحسن ؟ قال : مائة دينار ، فنقصه الحسين دينارا ، قد كره أن يساوي أخاه ، فترك له زيادة وفضلا . ثم أتى الرجل الى عبدالله بن عمر فسأله ، فأعطاه عبدالله سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء ، فقال له الرجل : اني أتيت الى الحسن والحسين ، ثم اقتص كلامهما عليه وفعلهما به ، فقال عبدالله بن عمر : ويحك ! وأنىّ تجعلني مثلهما ؟ انهما غُرّا العلم غُرّا المال [42]

وكذلك رأى جعفرٌ أباه محمدا بين يدي جدّه زين العابدين ، ورأى اخوته بين يدي أبيه ، فلزم الأدب الذي اتخذوه والعادة التي تطبعوا بها ، وما زال الأمر يعظم في صدر جعفر حتى اخذ يغالي في البر بوالديه، وحتى رأى حدّة النظر اليهما عقوقا، واعتقد ان سكرات الموت يخففها الله على من كان بارّاً بوالديه ، ورأى أفضل الأعمال

(٤١) الغرم الفادح الدين الثقيل ، والفقر المدقع الذي يسوء احتماله ، والحمالة المفظعة كحمالة الدية يحملها قوم عن قوم لتجاوزها المقدار

(٤٢) عيون الاخبار ج ٣ ص ١٤٠ — وغر الشيء اي دفعه في فمه دفعاً .

برّ الوالدين ، وجعله أحـد أمور ثلاثة هي أفضل الأعمال : أولها الصلاة لوقتها وثالثها الجهاد في سبيل الله [٤٣]

وفرض جعفر بن محمد في صفات الشريف أن يقوم من مجلسه لأبيه [٤٤] . وكان جعفر يفعل مع كبار أهل بيته ما يجب عليه ان يفعله لأبيه : حدّث عبدالله بن جرير قال : رأيت جعفر بن محمد يمسك لعمـه زيد بن علي بالركاب ويسوي ثيابه على السرج [٤٥]

وجعل جعفر اذا أقر بفضل واحد من اهله يذيع هذا الفضل في الناس : روى محمد بن سالم قال : قال لي جعفر بن محمد : يا محمد، هل شهدت عمي زيدا ؟ قلت : نعم ، قال : فهل رأيت فينا مثله ؟ قلت : لا ، قال : ولا أظنك والله ترى فينا مثله [٤٦] ـ ومع اعتقاد جعفر بأن عمه زيدا لم تكن له إمامة ـ فقدقال حين بلغه خبر مقتله: رحم الله عمي زيدا ! لو تمّ له الأمر لوفّى [٤٧] . وقد استطاع جعفر بمثل كلامه هذا أن يقضي على كل من تنكّر لعمه زيد .

●

---

(٤٣) محمد بن الحنفية ص ٨ ، ٩
(٤٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢
(٤٥) مقاتل الطالبين ص ١٢٩
(٤٦) الحور العين ص ١٨٨
(٤٧) غاية الاختصار ص ٧٩

وقد عاش جعفر في حياة أبيه الباقر نحواً من ثلاثين سنة [٤٨] فتطبّع بصفات أبيه زهداً وفضلاً ومحبة للعلم وايثارا له على الزهد والعبادة ، وتعلم منه ومن جدّه زين العابدين ان يطعم حتى لا يبقى لعياله طعاما ، وان يكسو حتى لا تبقى لهم كسوة . و بذلك حدّث الهياج بن بسطام قال : كان جعفر بن محمد يطعم ويكسو حتى لا يبقى لعياله شيء من كسوة أو طعام [٤٩] .

وطالما راى جعفر أباه محمدا يقوم في جوف الليل يضرع الى الله قائلاً : امرتني فلم آتمر ، ونهيتني فلم ازدجر ، فها أنذا عبدك بين يديك مقرّ لا يعتذر [٥٠] وطالما ضرب ابوه - بعد جده - امامه امثلة للصبر على البلوى والرضا بما قُدّر . وقد رأى الباقر بعض اهله يشتكى مرضا ، فجزع عليه ، ثم اخبر بموته فسرّي عنه ، فقيل له في ذلك ، فقال : ندعو الله فيما نحبّ ، فاذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما احبّ [٥١] .

كل هذه الحياة التي عاشها جده وابوه قد طبّعته على اخلاقها، فنشأ جعفر صبورا راضيا جمّ التواضع ،ولم يأنف قط - مع ما وُهِبَه

(٤٨) المعارف ص ٩٤
(٤٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٨
(٥٠) الفصول المهمة ص ١٩٤
(٥١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٥٧

من وفرة ـ ان يجلس على الحصير [٥٢] . وكانت كلمة « أنا » أكره كلمة على سمع جعفر، ما قالها رجل الا مستفتيه، وقد قال ذات مرة لرجل من احدى القبائل : من سيد هذه القبيلة ؟ فقال الرجل : أنا ، فقال جعفر : لو كنت سيدهم ما قلت أنا ! [٥٣] .

وصية الباقر

وخلف الباقر ستة اولاد كان جعفر افضلهم واكملهم جميعاً .

وكان جعفر حين جاء اباه الموت رجلا كامل السن ، ومع ذلك فقد كان عليه ان يتلقى وصية ابيه ، لان الوصايا تقليد في اهل هذا البيت ، وكل اب يوصى لابنه اذا كان اماما ، فلما عرف الباقر أنه سيقبض دعا بابنه جعفر فأوصاه .

أوصاه بأشياء في تشييعه وشق قبره ، وكان ذلك بحضرة نفر من قريش ، فيهم نافع مولى عبدالله بن عمر ، وقالو ان الشهود لم يكونوا في هذه الوصية ـ مع انحصارها في التشييع والدفن ـ الا ليعرف الملأ ان الباقر اوصى من بعده لابنه جعفر على الملأ [٥٤]

واوصى الباقر ابنه جعفراً باصحابه ، قال : لما حضرت ابي

(٥٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٦
(٥٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢
(٥٤) اعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٠١

الوفاة قال: يا جعفر، اوصيك باصحابي خيراً، قلت: جعلت فداك! والله لأدعنهم والرجل يكون منهم في المصر فلا يسأل أحداً [٥٥]، قد أوصاه باصحابه كذلك ليهديهم ويتم تعليمهم، ويغنيهم عن الناس.

السماع للعلماء

وان عند اهل البيت من العلم ما يكفي وما يغني، فقد اخذوا عن آبائهم عن رسول الله، ولكن جعفراً لم ير عليه بأساً ـ في حياة ابيه ـ ان يجلس الى الفقهاء والعلماء ويتنقل في مجالسهم ويأخذ حديثهم، وقد اقتدى في ذلك بأهل بيته عامة وجده زين العابدين خاصة، اذ كان زين العابدين يكثر من الجلوس الى حلقة زيد بن أسلم في مسجد رسول الله فرآه نافع بن جبير يفعل ذلك ويكثر منه فقال له: العجب لك! أنت سيد الناس وأفضلهم وتذهب الى هذا العبد فتجلس معه؟ فقال له زين العابدين: يا نافع، انه ينبغي للعلم أن يُذهَبَ اليه حيث كان! [٥٦]

وكان اكثر الناس حظاً بجلوس جعفر اليهم والسماع منهم عكرمة ابو عبدالله وعطاء بن ابي رباح ثم عبد الله بن ابي رافع وعبد الرحمن

---

(٥٥) انظر ما وصى به الباقر عند وفاته باعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٨٢، ٩٩ ويرى صاحب اعيان الشيعة ان الخير الذي يوصي به الباقر انما هو العلم

(٥٦) زين العابدين ص ٢١، ٢٣

ابن القاسم [٥٧] وغيرهم .

عكرمة

وكان عِكْرمة أبو عبد الله مولى لعبد الله بن عباس ، وقد احسن ابن عباس الرعاية عليه لما رآه من ذكائه وفطنته فجعل في رجله الكبْل وجعل يعلمه القرآن والسنن حتى صار اليه علمَ ابن عباس ،وكان من اعلم الناس بالتفسير وكتاب الله .

وأدرك عكرمة مئين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منهم في المسجد الحرام ،وروى لهم ، وسمع من الحسن والحسين واكثر من الرواية عنهما ، ثم روى عن ابن عمر وابن عباس وابي سعيد وأبي هريرة وعائشة .

وقد تعالى عكرمة سمواً في خلقه ورفاهيةً في ادراكه فرأى الخُلُق الحسن أصل الاسلام وعليه تبنى كلُّ مفاخره . وقد امتد به الأجل فبلغ الثمانين ، ولما مات سنة اربع ومائة هو وكثّير عزة الشاعر الغزِل في يوم واحد قالوا : مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس ! [٥٨]

---

(٥٧) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني س ١٧٠
(٥٨) صفة الصفوة ج ٢ س ٥٩

روي عن الزهري أنه قال : قدمتُ على عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمتَ يا زهري ؟ قلتُ : من مكـة ، قال : فمَنْ خلّفتَ بها يسود اهلها ؟ قلت : عطاء بن ابي رباح،قال عبدالملك: فمن العرب ام من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فَبِم سادهم ؟ قلت : بالديانة والرواية ، فقال عبد الملك : انّ اهل الديانة والرواية ينبغي ان يسودوا الناس [٥٩]

وعطاء هـذا كان مولىً لآل ابي ميسرة الفهريّ ، عبداً اسود حبشياً من ولد الجنـد ، وامه امرأة سوداء من اهـل مكـة تدعى « بَرَكة » ، ولد في خلافة عثمان ونشأ بمكة وعلم الكتاب بها وسمع من كبار الصحابة [٦٠] ثم صار عطاء بفضل ما حصّل من العلم من أشهر التابعين والمصطفين في تفسير القرآن [٦١] والعـلم بمناسك الحج طوافا وعكوفا وركوعا وسجودا [٦٢] وصارت حلْقة الفتوى في المسجد الحـرام لعطاء بعد ابن عباس ، وظـلّ المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وحجّ عطاءُ سبعين مرة .

---

(٥٩) حياة الحيوان ج ٢ س ٨٩
(٦٠) النجوم الزاهرة ج ١ س ٢٧٣ ـ المعارف س ١٩٦
(٦١) مقدمة مجمع البيان لأحمد رضا ج ١ س ٧
(٦٢) معجم البلدان ج ١ س ٢٠٤

وكان عطاء متواضعا زاهـدا لم يُرَ عليـه ثوب يساوي خمسة دراهم . يسمع الحديث من الرجل وهو اعلم به منه ثم يريه أنـه لا يحسن منه شيئا [٦٣] . وكان مؤمناً بالقدر خيره وشره ، ولا يسبّ احداً من السلف ولا يرضى أن يسبّهم أحد ، ولا يكفّر احـداً بذنب .كان شريفا فاضلا مقتصدا [٦٤] وكان اذا سئل اطال الصمت فاذا تكلم اجاب على سداد ، وخيّل للسائل انه يؤيّد او يُلهم .

وعطاء بن ابي رباح كان من اهل العاهات ثم كف بصره [٦٥] ، ولكنه لم يكن يريد بالعلم شيئا يغني بـه نقصا او يسدّ خلّة ، ما كان يريد به غير وجه الله سبحانه ، وقد اجمع الناس جميعا على فضله وعلمه ، فشهد له ابن عمر ،وشهد له سليمان بن عبد الملك وابو جعفر المنصور .

قدم ابن عمر مكة فجمع له اهلها مسائل فسألوه فيها ، فقال : اتجمعون لي يا اهل مكة المسائل وفيكم ابن ابي رباح [٦٦] ؟

وجاء اليه سليمان بن عبدالملك امير المؤمنين الاموي هو وابناه فجلسوا اليه وهو يصلي ، فلما صلى انفتل اليهم محولاً ظهره ، فما

---

(٦٣) صفة الصفوة ج ٢ س ١١٩، ١٢١

(٦٤) تاريخ بغداد ج ١٣ س ٣٣١

(٦٥) المعارف س ٢٥٠

(٦٦) صفة الصفوة ج ٢ س ١٢٠

زالوا يسألونه ـ وهم وراءه ـ عن مناسك الحج . ثم قال سليمان لابنيه : قوما ، فقاما ، فلما ابتعدا عنه قال لهما : يا بنيّ ، لا تنيا في طلب العلم ، فاني لا انسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود [67] .

وعن معاوية بن حديج قال : سألني ابو جعفر المنصور : ما فعل حسان بن عتاهية ؟ قلت : قتله شعبة ، فقال : قتله الله ! كان لنا جليساً عند عطاء بن ابي رباح [68]

وقد رضي عن عطاء كل الناس لانه لم ينتقص قدر أحد ،وكان اكثر الناس حديثاً عن سيرة علي بن ابي طالب ، وقد سئل : أكان أحدفي اصحاب النبي أعلم من على؟ فقال لا والله ما اعلمه [69] . وتحدث عطاء عن عدالة عمر بن الخطاب، وأفتى في صدقات الارض وخراجها وفي حقوق السلطان ، وتكلم في ديات القتلى وفي الحدود، وأفتى بكراهة قتل الاسرى وفي كل مسألة من مسائل الفقه [70] وقد أحبه بنو أمية فأمروا منـاديهم في الموسم الا يفتي الناس الا عطاء بن ابي رباح .

عطاء هذا ـ وقد صار الى ما صار اليه من الفضل الذي لا

---

(٦٧) صفة الصفوة ج ٢ ص ١١٩

(٦٨) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠٢

(٦٩) ألف با ج ١ ص ٢٢٢

(٧٠) انظر اخبار عطاء المتفرقة في الخراج لأبي يوسف

يجاري - كان يتمنى أن لو عرف العربية أحسن مما عرف ، ليدرك ما غاب عنه من أسرار القرآن .

التجارة

وكانت التجارة حرفة قريش منذ القدم ، ولأهل مكة ثم المدينة قدرة موروثة على الاتجار وايلاف الرحلة بها الى البلدان وضمان الرجوع بربح موفور ، وكان أجسر البيوت على التجارة بيت عبد المطلب ، وما زالت به هذه الحرفة حتى كان زين العابدين فاتخذ كأجداده الوسطاء والوكلاء يذهبون بتجارته الى الشام والعراق ويعودون ، ثم صارت الحرفة الى جعفر فتولاها بالوسطاء والوكلاء .

وأحس جعفر نعمة المال وآلاء الربح فلم يطغ ولم يطمع ، وعرف حق الناس من ماله فأداه ليزيد بفضل ما اعترف وما أحسن ، ولم يرض من وكلائه ان يسوقوا اليه ربحاً يرهق المشترين ويصيبهم بالغبن ، فاذا غُبِنوا أبى ان يقبض المال ورده على وكلائه ليحملوا وزره . وقد قالوا ان وكلاءه جاءوه مرة بربح فاحش فرده عليهم ولم يقبضه وقبض رأس المال ، ولولا بعد الشُقة وطول الطريق وان المشترين تفرقوا في البلاد بعد الشراء ولم يعودوا يُعرَفون لردّ جعفر عليهم اموالهم ولم يعط لوكلائه منها شيئاً .

واتخذ جعفر من خُلقه درعاً يقي بها نفسه مما يفزع التجار اذا

كسدت الأسواق وبارت المتاجر ، فكان اذا أصابه خسار صبر حتى يهب الله الميسرة فاذا أيسر وصل الصبر بشكر الله وحمده ، وقد جعل الصدقة تعبير الشكر اذا ربح وتعبير الرجاء اذا خسر ، فكان اذا املق جعل يتاجر الله بالصدقة فيوسع عليه ويزيد في نعمته . وقد جرّب ذلك كثيرا فلم يقطع الله عنه وقد شهد هو بذلك فقال : اني لأملق أحيانا فأتاجر الله بالصدقة فيربحني وأتّسع [71] . فلم يجعل المساومة طريقا فرداً لبيعه وشرائه بل كان يتخذ من الصدقة طريقا أخرى ، وكان يرى صدقة السرّ أسرع في رضاء الله وتعويضه عما خسر [72] .

ولم يكتم جعفر تجاربه تلك عن الناس ، فأذاع سرّها عليهم وألحّ في الدعوة لتحريضهم عليها ، وجعل يعلّم التجار علمه في الشكر والصبر ، ولا يفتأ يعظهم بأن يجربوا تجاريبه ، وقد قالوا : ان رجلا من التجار كان يختلف اليه لمودّة كانت بينهما ، ثم انقطع الرجل عنه ، ثم جاءه وقد تغيّرت حاله فجعل يشكو اليه كساد الزمان ، فأنشأ جعفر يصبّره ويهوّن عليه ويلين له بالعظة وينشده شعراً ، وما زال به حتى سُرّي عنه [73]

(71) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ ـ الحكمة الخالدة ص ١٧١
(72) عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٣
(73) الفصول المهمة ص ٢١١

ان جعفراً كان يَرَى أرزاق التجارة تجري على غير نظام ، بل ان كل الأرزاق كذلك منذ خلق الله الدنيا ، يُوسَّعُ فيها للحمقى ويضيّق فيها على العقلاء ، ولم يضجره ذلك ، بل انه اعتقد انّ ذلك حجةٌ على العقل لئلا يغترّ أحدٌ بعقله وقوته ، وانه ليقول في ذلك : ان الله تعالى وسّع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أن الدنيا ليس يُنَال ما فيها بعمل ولا حيلة [٧٤] . ومع كل ذلك فانه كان يَرَى أنه لا بدّ للتاجر من مصانعة الناس بالمودة اليهم فانهم سبب رزقه ، وقد قال أبو عبيدة للصادق : ادعُ الله لي ألا يجعل رزقي على أيدي العباد ، فقال الصادق : أبى الله عليك ذلك ، أبى الا أن يجعل أرزاق العباد بعضهم من بعض ، ولكن ادعُ الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه فانه من السعادة ، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه فانه من الشقاوة [٧٥]

وكان على كل صانع في رأي جعفر حين يريد أن تروج في الناس صناعته ويكثر ربحه أن يكون حاذقاً بعمله، وأن يؤدي الأمانة فيه ، وأن يكون قادراً على الدعوة لصناعته واستمالة الناس اليها [٧٦] وهكذا رأى جعفر للتاجر والصانع أن يستميلا الناس بالدعوة

---

(٧٤) الكشكول للبهائي ص ٦٣٢
(٧٥) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٩٤
(٧٦) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٨

والقدرة عليها ثم المصانعة بالمودّة فان الناس اسباب الرزق للناس وقد أبى الله الا أن يكون رزق العباد من بعض الناس لبعض .

زينة الله

وكان الزمن قد صار الى الرخاء واليسر واللباس والزينة ، تفد الى الناس مقتطعات وضروبٌ ذات الوان من فارس ومصر وبلاد اليمن ، وانصبّت خزائن الأرض في بيوت أموال المسلمين وايدي تجارهم ، فلما رفَع الله شراع الربح لجعفر لم يجد عليه من بأس في أن يزدان بالثياب ويكتسي من طيّب ما رزقه الله ، « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟ فاتخذ جعفر زينته عند كل مسجد وفي كل مجتمع وعند كل لقاء للناس ، لأنه رآها يد الله على عبده يجب أن تشكر باعلانها .

لبس القُرْقُبيّ ولبس الثياب المرويّة ولبس من الثياب الخزّ وما ابيضّ ونَعُم حتى كأنه غرقىء البيض [77] . ولكن الناس - وقد ولعوا بكل خلاف - عجبوا أن يفعل جعفر بن محمد ذلك ، وكان لهم عذر مما يفعله الخليفة المنصور الدوانيقي [78] بنفسه مع سعته

(٧٧) انظر صفة لباسه بأعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٩٤ — والقرقبي نسبة الى قرقب ، والمروية نسبة الى مرو ، وغرقىء البيض القشرة الرقيقة تحت الغليظة واسمها القيض أما الزلال فاسمه المح والصفار فاسمه الآح .

(٧٨) لعله سمي الدوانيقي نسبة الى الدوانيق وهي أجزاء الدراهم الصغرى وذلك لعنايته بها لبخله .

وكثرة ماله، فقد كان يضيّق على نفسه في الثياب، وعلى نفسه وضيفه في الطعام والشراب، فقيل لجعفر بن محمد: ان ابا جعفر المنصور لا يلبس - مذ صارت اليه الخلافة - الا الخشن ولا يأكل الا الجشب [٧٩] فقال: يا ويحه مع ما مكّن له من السلطان وجُبي اليه من الخراج! فقالوا: انما يفعل ذلك بخلاً وجمعاً للمال! فقال: الحمد لله الذي حرمه من دنياه بما ترك له من دينه [٨٠]. ولعل هذه القولة من جعفر بلغت المنصور فأصرها له وحقدها عليه.

والحق ان جعفر بن محمد لم يكن يلبس ما يزدان به ظاهره الا اذا ذهب الى المسجد او الموسم او لقي الناس، اما هو وحده، واما وراء هذا الظاهر فجبة غليظة قصيرة من شعر خشن تلمس جسده، فاذا وجد من يلومه كشف له عن جبته واعلمه حقيقة حاله، فاذا سأله لِمَ يفعل بنفسه هكذا؟ قال: نلبس الجبة لله والخز لكم، فما كان لله اخفيناه وما كان لكم ابديناه [٨١]

قال جعفر بن محمد: بينا أنا في الطواف اذا رجل يجذب ثوبي واذا عبّاد بن كثير البصري، فقال: يا جعفر، تلبس مثل هذه الثياب وأنت في هذا الموضع من المكان الذي انت فيه من عليّ؟

(٧٩) الجشب القفار لا إدام معه
(٨٠) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٤
(٨١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢

فقلت : فرو قبيّ اشتريته بدينار وقد كان علي في زمان يستقيم له ما لبس فيه ، ولو لبست مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس : هذا مُراءٍ مثل عبّاد ! [٨٢]

وقال سفيان الثوري : دخلت على جعفر بن محمد وعليه كساء من خز ، فجعلت انظر اليه تعجباً ، فقال لي : يا ثوري ، ما لك تنظر الينا عجباً ؟ قلت : انكم من بيت نبوّة وتلبسون هذا ؟ قال جعفر : يا ثوري ، كان ذلك زمان اقتار وافتقار ، وكانوا يعملون على قدر فقره واقتاره ، وهذا زمان قد أسبل على كل شيء عزاليه [٨٣]

وكأن الثوري لم يرض بما قاله جعفر فعاد اليه قائلاً : يا ابن رسول الله،ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك ! فلم يجد جعفر بداً من ان يظهر له ما خبأه عنه ، فقال له : ما تدري ! أدخل يدك ، فمد الثوري يده لذيل كساء جعفر يكشفه ليرى الثياب تحته، فاذا تحته مسحٌ من شعر خشن ، ثم قال: يا ثوري، ارني ما تحت جبتك،فوجد تحتها قميصاً أرق من غرقىء البيض . فخجل الثوري من جعفر وأمسك ، فقال له جعفر : يا ثوري ، لا تكثر الدخول علينا تضرّنا ونضرك [٨٤]

---

(٨٢) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٩٥
(٨٣) العزالي جمع عزلاة بفتح العين مصب الماء من الراوية .
(٨٤) مطالب السؤول ص ٥٦ ـ الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢

ولو كان زي جعفر كله خزاً أزرا وأردية لكان من وراء رأيه وفتواه أمر جدّ وفقه سديد يحل مشكلة الداعين الى التقدم والواقفين عند التأخر ، فان جعفراً يرى الزمن حكما في المطعم والملبس والمسكن وما اليها ، والناس يلبسون زمانهم خشناً وناعماً ، فاذا اتسع لبسوا جميلاً واكلوا طيباً ، واذا ضاق اكلوا ما أنبت ولبسوا ما نسج ، وهم في الحالين لا يباح لهم الا المباح ، ولا يحل لهم الا الحلال . وجعفر بن محمد لم يقدم على محرّم حين لبس جبة الخز ، ولم يلبس شيئاً يُلزمه به الدين حين لبس تحت الخز صوفاً .

وفي الامر وراء ذلك اشارة لطيفة للادب مع الناس ، اذ هو يوصي بأدب التلاقي ، والمتلاقيان في اجمل زيهما ومظهرهما والفاظهما أما الانفراد الى الله فليكن بالحال التي يرضاها الله ، وما هو براض عن مظهر او زي جديد ليس وراءهما خير . ولم يكن امره تعالى ان يأخذ المؤمنون زينتهم عند كل مسجد من اجله هو ، ولكنه من اجل هذا التأدب الذي يجب ان يكون بين الناس . وجعفر خير من يدرك الحكمة ، وقد ادركها ، ثم علمها للثوري حين انكر عليه الثوري ما لم يكن يعلم الحكمة فيه .

المهابة والوقار

وعلى جعفر مما ورث من آبائه ثوب مهابة يكتسي به ، فاذا

لقيه أنصاره وخصومه لم يملكوا انفسهم من اجلاله وتوقيره والشهادة له ، وكان فيمن حدّث عنه عمرو بن أبي المقدام قال : كنت اذا نظرتُ الى جعفر بن محمد علمتُ أنه من سلالة النبيين [٨٥] .

وكان لجعفر من الفناء الواسع في قصره الكريم [٨٦] ما يقصد الناس اليه للطعام والعطاء ، ولعله هو قصر جده زين العابدين ، فاذا ذهب للموسم ضرب فساطيطه بعد ان يرتحل على قطار من الابل في أهله وخدمه ومواليه [٨٧] .

وزاده مهابة علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات [٨٨] . وحياة كلها تأنٍّ واستبصار وايجاز من غير استرسال ، لأن سقطة الاسترسال كانت عنده لا تُستقال [٨٩] .

لقب الصادق

وكذلك شبّ جعفر اماما نبيلا فلقب بالصادق ، لقبوه جميعا به ، لم يستثن أحدٌ من أصحابه أو خصومه لم يلقبه به ، كان

---

(٨٥) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٤
(٨٦) عقيدة الشيعة
(٨٧) الفصول المهمة ص ٢١٢ ـ مقاتل الطالبيين ص ٤٣٧
(٨٨) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥
(٨٩) الحكمة الخالدة ص ١٤٧

هناك اجماع تام لا خرق فيه على تلقيب جعفر بن محمد بالصادق . وصار له في الزمان كله علماً يعرف به ، وقالوا انه جرت في تلقيبه به اقوال ، ولقب جعفر بألقاب أخرى . ولكن لم يشتهر منها واحد كما اشتهر لقب الصادق .

ومن لم يثقل على نفسه في البحث قال : انه لقب بالصادق لصدقه في مقالته او لصدقه في قوله وفعله [٩٠] . ومن اثقل على نفسه بعض الشيء قال : ان الذي لقبه بالصادق ابو جعفر المنصور حين اخبره أنه سيلي الخلافة ثم وليها ، ثم قالوا : انه سمي بالصادق لأن أبا مسلم الخراساني كان قد طلب اليه أن يظهره على قبر جده علي بن أبي طالب فامتنع ، ثم أخبر ان القبر انما يظهر في ايام رجل هاشمي يقال له ابو جعفر المنصور ، ثم انه أظهر التربة فأخبر المنصور بذلك وهو في الرصافة ففرح وقال : هذا هو الصادق . [٩١]

ولكن الأمر يحتاج الى دقة وتفصيل : انه انما سمي بالصادق لأنه كان أكثر من كل الناس صدقا ، وكان في صدقه خالص الصراحة لا يبالي احدا من أهله أو غير أهله متى نطق بالحق . ومع انه لم يقل الا ما اعتقد أنه الحق ولم يعمل الا ما رآه حقا فانه لم يقبل

---

(٩٠) وفيات الاعيان أخبار جعفر بن محمد ـ حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

(٩١) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٩١

من احد قولا او عملا الا والصدقُ بيّن فيه والعذر واضح ، وقد مضى الصادق على ذلك في اثناء حياته كلها .

وبقي هناك ما هو أجَل من ذلك خطرا وأعظم شأناً ، ذلك ان الكذب كان قد شاع في عصره شيوعا عظيما ، وتهافتت الأمة في أقطارها المسكونة من الارض كلها على الكلام في القدر ، وتمرّغت في مراغات الالحاد والتفلسف ، وأدلى كل من الناس بدلوه في الفتنة الحمقاء .

أما جعفر بن محمد فوقف يصّد التيار ويرسم للناس طريق النجاة الذي عرفه منجيا عن سلفه وآبائه ، دون زيغ او محاولة زائفة لا ثبات ما يعتقده بأدلة من الباطل ، وكان صحّ حينئذ ما كان اخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال « خير القرون قرني الذي بعثت به، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم [٩٢] » وذلك يبدو انه من اهم الاسباب لتسميته بالصادق .

ولقد دقت أصوات الأراجيف بعلم الكلام أسماع اهل المدينة ، وسال الناس فيه سيل الماء او سيل البحر ، حتى انهم قالوا : ان محمد ابن عبد الله المحض الملقب بالنفس الزكية ومعه جماعة اخرى من آل ابي طالب قد استجابوا لمقالة واصل بن عطاء حين ارسل اليهم أبا

٩٢) المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ٦٤

أيوب بن الأدبر رسولا من عنده يدعوهم الى مقالته في الاعتزال [٩٣].
كانت الأراجيف عير عربية ثم استعربت لتهز الاسلام من قرب وتصيبه من الداخل ، فتأثر بها المسلمون ، أما الاسلام فبقى كما كان قوياً عزيزاً .

---

٩٣) مقاتل الطالبيين ص ٢٢٨

العِلم والأدَب

•

تعليم الله

من الناس من شرح الله صدره للعلم وأوسع في قلبه للمعرفة وأرهف من حسّه للادراك ، ومن الناس من يدرك الأشياء وتتفتح له مغاليق الأمور بغير جهد يذكر ،حتى كأنه يُلَقّن العلمَ تلقينا أو يُلْقَى به اليه الهاما . والهدايةُ التي تصيب المفكر والمنقب والمخترع كثيرا ما تكون من لفتةٍ قصيرة تصل به الى النتائج دون الحاجة الى التجارب والأزمنة ، وهذه الاشراقات الواقعة في البشرية كل يوم تقضي على زعم من ينكر الهام الله ودفعه المعرفة الى القلوب .

وقد يخص الله بفضله قوما يتوارثون هذا الاستعداد و ينفردون بهذا الاشراق ، وكما شئتَ ، فقل انه علم موروث ، أو قل انه استعداد موروث للعلم ، وليس هناك من سبيل لانكاره ما دام حقا واقعا في الناس كل حين . وان يشأ الله يختم على القلوب فلا تدري

علما ولا تتفتح لخير [٩٤] .

وجعفر بن محمد تفتح قلبه للعلم وكان يقظا بصيرا ، حتى ان ما افيض على قلبه من سجال التقوى جعل الأحكام التي لا تُدْرَكُ عِلَلُها ، والمسائل التي تقصر الأفهام عن الاحاطة بها مُدْرَكَةً لديه مكشوفة بفهمه الثاقب وقلبه البصير .

بيت أبي طالب

ولقد ارتفع شأن العلم والأدب في بيت أبي طالب منذ كان أبو طالب حتى في الجاهلية ، فلما كان عليّ ابنه كان البابَ الذي يُدْخَلُ منه الى علم رسول الله ، ما في ذلك ريب ، وقد شقق عليّ العلوم بفكر ثاقب وبصر دقيق حتى كأنه كان ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، ثم تفرّق علمُ عليّ على الناس من أهل بيته ومن غيرهم فملأ فجاج الارض .

ومع الهول الذي رمت به الاحداثُ حسنا وحسينا وأهل البيت من بعدهم ، فان صوت العلم ظل يرتفع في بيت أبي طالب وقَدْرَه يعلو . وقد انحسر العلمُ عن بيوت كثير من اولاد الصحابة واتبعوا الدنيا ، او انحسر العلم والفقه كلُّه في كل الاقاليم عن العرب الى الموالي ، اما هذا البيت فلم يكن فيه مُنْحَدَرٌ لينحسر منه

(٩٤) انظر قوله تعالى : فأن يشأ الله يختم على قلبك ... سورة الشورى

العلم أو يغيض .

فلما كان محمد بن علي تبقر في العلم وجعـل يرفعه فوق العبادة قائلاً : عالم يُنْتَـفَـع بعلمه أفضل من الف عابد [٩٥] . ثم جاء ابنه جعفر يؤكد هذا الرأي ويعمل به ، فجعل العـلم همّـه كلّـه أخذا وعطاء ، وانصرف اليه انصراف من يُرَى كأنه لا يشتغل بشيء سواه . ومن طريق العلم يتحقق كل رأي يريده جعفر في السياسة أو في غيرها ، وكما يريد ، وما كان جعفر يريد من السياسة الا ان يقوم الدين وتتحقق العدالة وتتصل المروءات بين الناس .

علوم الدنيا

وأطلت عين جعفر على حقائق العلم فرآها في علوم الدنيا وعلوم الدين ، فلم يدع واحداً منهما ليُلْـقِي نفسه على الآخر ، وانما قدّم ما حقه التقديم ، ولم ينس نصيبه من الدنيا ، وأخذ يسبق الى مسائل العلم المادي لأنه رآها معينةً على علوم الدين ولا غنى للدنيا عنها ، وكثير من مسائل العلم يشترك فيه الدين والدنيا فلا ينفصلان ، وقد صار له في كل ناحية منها خبرة تدلّ على أنه قد غاص الى قرارها أو كاد .

وكيف يكفُّ علماء المسلمين عن علوم الدنيا والدين الاسلامي نفسه

(٩٥) الفصول المهمة ص ١٩٥ ـ مطالب السؤول ص ٥١

يتخذ هذا العالم مادته التي يطبق عليها تعاليمه واحكامه تطبيقاً واقعاً لا خيالاً ، فالغرابة ان يبتعد مثلُ جعفر عن علوم الدنيا ، بل انه لمن المستحيل على مثله الا اذا أخذ أحكام دينه ليضرب بها في تيهاء من الخيال .

الكيمياء

وقد اكثر الرواة من قولهم : إن له مقالا او كلاماً في صنعة الكيمياء[96] ، وقالوا ان تلميذه جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد ألف كتاباً يشتمل على الف ورقة تتضمن رسائل جعفر بن محمد، وهي خمسمائة رسالة[97]

وما من شك في ان الفراعنة والاغريق قد سبقوا العرب في دراسة الكيمياء بقرون[98] ، وما من شك في ان جعفر بن محمد قد سُبق بدراستها عند العرب بخالد بن يزيد وغيره ، وقد اعتمد خالد علي كثير مما عُرِّبَ له ، ويقال : عربت لخالد كتب الطب والنجوم ويقال : فانما وَلَهُهُ كان في صناعة الكيمياء ، وله في ذلك رسائل وكان قد اخذ تلك الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مرياس

(٩٦) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

(٩٧) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩١.

(٩٨) انظر « جابر بن حيان » من سلسلة اقرأ بمصر . وانظر الامام الصادق ملهم الكيمياء من سلسلة حديث الشهر بالعراق

الرَّوْضي ٩٩ ثم اقبل جعفر بن محمد على الكيمياء اقبال من يريد فتح كنوز الكون وضرْب المثل أمام التلاميذ ليسلكوا في مسالك الحقيقة كلما وجدوها ، وفي رحلة لجابر بن حيان الى الكوفة كان اتصاله بجعفر فلزمه تلميذاً وصديقاً وتلقى عنه هذه الصناعة ١٠٠

ثم رحل جابر بما تعلمه الى بغداد ، ومن هناك ذاع فضله في الكيمياء متبعاً طريق استاذه التي دله عليها ، ولا سبيل الى انكار ذلك بعد اعتراف جابر نفسه بتعاليم استاذه ،ولو كنا بسبيل عرْضِ مسائل جعفر في الكيمياء لعرضناها . واذا انكر منكر فضل جعفر فما يضير جعفراً ان لم يكن رجلاً من أهل الكيمياء ! الا ان انقطاعه الى العلم الخالص وتتبعه الخطوات التي يخطوها العلمُ في البلدان ، وادراكه النهضة التي يسير العلم اليها يكاد يدلنا على الصدق الصريح في الاخبار بكيميائه .

ومن الغريب ان يقترن الاخبار عن عمله في الكيمياء بعمل له في الزجر والفأل ١٠١ . وكأن الرواة تصوروا الكيمياء سحراً وشيئاً غريباً . ولما كانت مجهولة الاسباب قرنوها بالزجر والفأل حتى لا

---

(٩٩) لوائح الانوار البهية ص ١٠ – وينسب الى خالد كتاب الفردوس في الكيمياء معجم البلدان ج ٦ ص ١٨١

(١٠٠) جابر بن حيان وخلفاؤه ص ٣٧

(١٠١) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

يكون للحوادث سبب ظاهر وسر معروف . اما الكيمياء فمعروفة الظواهر مقيسة العناصر مقدورة النتائج ، وفي مثل هذا يعمل جعفر.

ولعل اشتغاله بالعلم الخالص وانقطاعه الى العبادة في بعض الاحيان ثم خروجه للناس بتجارب من الكيمياء ومسائل من العلم تخفى أسبابها ودقائقها على الناس ــ لعل ذلك دفع في قلوب الناس منه أوهاماً فجعلوا يتهمونه بالتنجيم والزجر ، وهم بذلك لا يريدون الا ان يزيدوا في فضله بما توهموه من الفضل ، وهو واجبٌ أن يكون محالا في شأن جعفر بن محمد الامام .

وقد أثر جعفر في تلميذه جابر أثراً خلقياً بالغاً ، فحين املى عليه رسائله في الكيمياء علّمه كيف يصنّف في هذا العلم ، وكيف يختار ما يتضح به المعنى ، وكيف يجرب حتى لا تترجح النتائج بين الصدق والكذب ، وكيف يكون خلق الصبر والدأب معاوناً على الوصول الى معرفة الحقائق . ومن ثمّ صحّت تعبيرات جابر أن تكون مثالاً يحتذيه أهل اوربة ويقلدونه [١٠٢]

حساب الفلك

وروى القزويني أن جعفر بن محمد قال : اذا اشكل عليك أول شهر رمضان فعدّ الخامس من الشهر الذي صمته في العام الماضي

(١٠٢) جابر بن حيان وخلفاؤه ص ٤١

فانه اول يوم من شهر رمضان الذي في العام المقبل . قال القزويني: وقد امتحنوا ذلك خمسين سنة فكان صحيحاً [١٠٣] . واذا صح ذلك كان اهتماماً من جعفر بمسألة تشغل البال في امر الهلال ، فانه كثيراً ما يُغَمّ على الناس في مكان ويظهر في مكان ، ويتضح عاماً ويختفي آخر ، بما يكون عليه الحال في جوّ السماء من صفو وكدر فيضطرب الناس في الشهر . ولعل جعفراً اراد أن يسلك بالناس طريقاً من الحساب لا يخطىء واجتهد له وجعل يرصده ويقيّد رصده كل عام حتى استقامت له النتيجة بالمشاهدة . وهذا الأمر لو صحّ من جعفر لكان عملاً لاقرار الامور على قواعد من العلم لا تتنافى مع ما امر به الدين من الصيام عند الرؤية ، فان التحقيق العلمي يكون كالرؤية وأوثق منها [١٠٤]

أما ما قيل من ان جعفراً اشتغل بالتنجيم فأمر مردود كما رُدَّ قول القائلين بانه اشتغل بالزجر والفأل . [١٠٥]

---

(١٠٣) عجائب المخلوقات بهامش حياة الحيوان ج ١ ص ١٢٧

(١٠٤) هذه حسبة دينية والمراصد تعتمد اليوم الحساب لا الرؤية بالعين المجردة ، فقد يكون زمن الهلال اول ليلة من رمضان دقيقة واحدة فوق الأفق فلا يرى . وقد اعتمدنا في هذا قول صديقنا مواهب فاخوري اليسوعي اللبناني وقد اعتمد هو كتابا جاءه من مرصد حلوان بمصر يوافق رأيه .

(١٠٥) انظر دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ العدد ١١ ص ٤٧٣ .

العلم بالحيوان

وقالوا : حكى ابو الفتح كشاجم في كتاب المصايد والمطارد أنّ جعفراً سأل أبا حنيفة النعمان فقال له : ما تقول في مُحرم كسرَ رباعيةَ ظبي ؟ فقال النعمان : ما أعلم ما فيه ، فقال جعفر : أنت تتداهى ولا تعلم ان الظبي لا تكون له رباعية ، وهي ثنيّ أبداً [١٠٦]

وهذا الامر انما كان العلم به لخدمة الدين ، فبه يعرف الكذب من الصدق في الدعوى ، وبه تعرف الديات وتقدر الحقوق ، ومن تعرض للفقه والقضاء كان عليه أن يعرف أين يقع الكذب وأين توضع الدية ويقدر الحق . وحسبُ ابي حنيفة ان يتعلم هذه وحدها من جعفر ، وله بعدها ان يتهجر لدراسة علم الانسان والحيوان ، وله بعدها ان يقيس .

وليس على ابي حنيفة من بأس اذا تعلّم ، ولا سبيل الى انكار أخذه من جعفر ، لا سبيل الى ذلك قط ، فان في خراج ابي يوسف مسائل كثيرة رُدّ اسنادها الى الصادق ، وما من ريب في ان النعمان كان سبيل ابي يوسف اليها .

أمكنة في الارض

وقد عني جعفر بن محمد بكثير من الامكنة في الارض وأرّخ لها

---

(١٠٦) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٢ – حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

وكان يعنى العناية كلها بمكة وما حولها ، فأخبر عن البيت العتيق وانه انما سمّي بذلك لان الله تعالى أعتقه من الطوفان [107] ، وقد جرى الناس في اثر جعفر يقولون انه سمّي بذلك لانه أعتق من الجبابرة ، أو سمي كذلك لسلامة الكعبة من الرقّ [108] . واخبر جعفر عن بناية البيت العتيق أول ما بني في الارض ، وقالوا انه اخبر أن ذلك كان منذ اراد الله ان يجعل الانسان خليفة في الارض [109] . وفتح جعفر الباب فولج الناس .

وسئل عن بعض الامكنة وفضائلها فأجاب : سئل عن الحطيم اين هو ؟ فقال : هو ما بين الحجر الاسود والباب ، فقيل : ولم سمي الحطيم ؟ فقال : لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً عنده ، وجرى الناس في أثره فقالوا : لأنه يحطم من استخف به . وسئل عن الركن اليماني فقال : بابنا الذي ندخل منه الجنة [110] . أليس ذلك كله في خدمة الدين ؟

وقد اخبر عن علمه بما لبعض الامكنة القريبة والبعيدة من مزية وتاريخ : قال ابو حمزة الثمالي : قال لي ابو عبد الله جعفر بن محمد

---

(١٠٧) الفصول المهمة ص ٢١٠ ــ نور الأبصار ص ١٤٧
(١٠٨) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢١٠
(١٠٧) معجم البلدان ج ٧ ص ٢٥٦
(١١٠) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٧٨

الصادق : يا أبا حمزة ، هل تعرف مسجد سهل؟ قلت : عندنا مسجد يسمى السهلة ، قال : أما إني لم أرد سواه ! لو ان أحداً اتاه فصلّى فيه واستجار ربه لأجاره [111]

وقال ياقوت : وحدث بعض أهل همدان قال : قدمت على ابي عبد الله جعفر بن محمد الصادق فقال لي : من اين أنت ؟ قلت من الجبال ، قال : من أيّها ؟ قلت : من همدان ، قال : أتعرف جبلها الذي يقال له رَاوَنْد ؟ فقلت : جعلني الله فداك ! انما يقال له أرْوَنْد ، فقال : نعم ، أما إن فيه عيناً من عيون الجنة !

قال ياقوت : فأهل البلد يَرَوْن أنها الجمّة التي على قلة الجبل ، وذلك ان ماءها يخرج في وقت من اوقات السنة معلوم ، ومنبعه في شقّ صخرة ، وهو ماء عذب شديد البرودة ، يشرب منه الشارب فلا يرتوي ... فاذا تجاوزت أيامه المعدودة التي يخرج فيها ذهب الى وقته من العام المقبل ، وهو شفاء للمرضى ، يأتون من كل وجه فيكفيهم جميعاً ، وكأنما يكثر ماؤه اذا كثر الناس عليه ويقل اذا قلوا عنه [112]

ومن الغريب ألا يذكر جعفر بن محمد السهلة وأرْوند بلفظيهما

---

(١١١) السهلة مسجد بالكوفة ـ معجم البلدان ج ٥ ص ١٨٧
(١١٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٨

المعروف عند أهلهما ، وكأنما هو لا يُعنى بالاسم لذاته وانما يُعنى بخصائصه ومميزاته ، ثم لا فرق هنالك بين سهل والسهلة وراوند واروند ، وما جدوى حفظ اسماء في الارض اذا لم تُعرف بفضائلها ؟

وجعفر بن محمد كان يجيد الرحلة من المدينة الى مكة ، ويعرف البُرُدَ والفراسخ [113] والارض القفرة والمنزل الخصيب ، ويعرف الطريق بين الحجاز والعراق ، ويدري تمام الدراية آثار الطفّ واماكن المواقع والقبور بها ـ ما كان يعرفه الناس وما كانوا يجهلونه ـ وكان أعرف الناس بقبر جدّه عليّ لأنه ووري عن عيون الناس ، وقد حدث جعفر عن أبيه قال : صلى الحسن على علي رضي الله عنه ودفن بالكوفة عند قصر الامارة وعمّي قبره لئلا تنبشه الخوارج [114]

ولقد سار الناس في اثر جعفر فعرفوا لعلي القبر الذي دلّ عليه، وفتح جعفر الباب فولج الناس: جاء رجل من أهل الحيرة الى الرشيد وهو في الصيد فقال له : يا أمير المؤمنين . أرأيتك ان دللتك على قبر ابن عمك علي بن أبي طالب ، ما لي عندك ؟ قال : أتم مكرمة ! قال : هذا قبره . ودلّه عليه . فقال له الرشيد : من أين علمت هذا ؟

---

(١١٣) مقاتل الطالبين ص ٣٧ ؛
(١١٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٠

قال : كنت أجيء مع أبي فنزور قبره ، وقد اخبرني أنه كان يجيء مع جعفر الصادق عليه السلام فيزوره ، وأن جعفرا كان يجيء مع أبيه محمد الباقر فيزوره ، وأن محمدا كان يجيء مع أبيه زين العابدين فيزوره ، وأن زين العابدين كان يجيء مع أبيه الحسين فيزوره، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر . فأمر الرشيد أن يحجّر الموضع. فكان أول أساس وضع فيه ١١٥

هذا ، أما مواطن نزول القرآن ، فما من ريب في أنه كان يعلمها عن آبائه عن علي - كرم الله وجهه - علم اليقين .

علوم الدين

وانه - وان كان جعفر قد خاض في علوم الدنيا - قد كان همه الأول علوم الدين ، هو أولى بها وهي أولى به ، وقد ذاع عنه منها ما لم يذع عن أهل بيته كثرة وتفصيلا ، وكان لصاحب مذهب أن ينضج عنده الاحساس اللغوي ويرتقي نضجا ورقيا لا يداخلهما نقص ، وكان جعفر من هذه الناحية ابن البيت الذي لم ينضح بالفصاحة بيت مثله ، ثم كان لا بد لصاحب مذهب أن يلم بأحكام القرآن كله . ومن يطلع على تفاسير جعفر يره لا يكاد يترك كثيرا من مشكلات القرآن الا وهو يدلي فيها برأي ويقول فيها ما يعلمه.

---

(١١٥) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٢٦

ثم كان لصاحب مذهب أن يعلم حديث رسول الله ويلم به وبسيرته ، وما اظن الصادق في حاجة لأن يقول فيه الناس انه كان يعلم ، فاذا لم يكن الصادق يعلم فمن الذي يعلم ؟ ثم كان جعفر بعد ذلك كله آية في الاخلاص والتنزه عن الغايــة ، ثم كان شعلة من ذكاء .

الحديث

ومن الناس من يقول انه لم يَرْوِ الا عن أهل بيتــه . ومنهم من قال انه روى عن جدّه لأمه القاسم بن محمد ، ولم يَرْوِ عن جدّه لأبيه علي زين العابدين ـ وقد أدركه وهو مراهق ـ ولكنّ جعفرا روى عن جده زين العابدين ، وكان حان له ان يروي عنــه ، واذا كان ابوه الباقر روى عن أبيه فليس يدري احدٌ لماذا جهلوا ذلك ، والصادق يَرْوي عن الباقر ، فهو لا بدّ آخــذ من جده لأبيه عن طريقه [116]

وقيل انه أسند عن عروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح ونافع والزهري [117] ، وروى عن محمد بن المنكدر [118] وقد روى عن

(١١٦) انظر النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩ وانظر الخراج للقرشي
(١١٧) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩ ـ اسعاف الراغبين ص ٢٢٧
(١١٨) طبقات الصوفة ، الحاشية ، ص ٤٩٨

طبقة ابيه وجده القاسم [119] . وهكذا روى الصادق عن هؤلاء ، وعني بالرواية وعرف بدرايته الواسعة للحديث [120]

رَوَى عن ابيه . ورَوَى منقطعا . وروى فقهاً في العبادة عن طريق عثمان . وروى عن جده القاسم الذي رَوَى عن عائشة وابن عباس . وقالوا : لم ينقل العلماء عن احد من اهل بيته ما نقل عنه من الحديث فاستفاد منه جماعة من الأئمة [121] . وقال ابو حاتم : جعفر الصادق ثقة لا يُسْأَلُ عن مثله [122] وقد وثّقهُ ابن معين وابن عديّ من رجال الحديث [123] .

وأورد له أبو يوسف روايته عن أبيه عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ان يَسَنّ بالمجوس سنة اهل الكتاب . وهذا يتصل بفقه جدّه علي بن ابي طالب فانه افتى ان المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه [124]

وقد ارتضى أهل السنّة طريقه فروَوْا عنه ، و بعضهم ظلم الحقيقة حين قال ان أهل السنة ابتعدوا عن روايته بسبب تلاميذه .

---

(١١٩) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠
(١٢٠) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ العدد ١٢ ص ٤٧٣
(١٢١) مطالب السؤول ص ٥٥
(١٢٢) نور الأبصار ص ١٤٥
(١٢٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠
(١٢٤) الخراج لابي يوسف ص ١٣٠

والحق ان اهل السنة لم يبتعدوا عن الرواية له ، وهل كان في استطاعة أحد ان يصدّ تيارات الرواية للحديث حين ذاك ، أو أن يفصلوا بينهما ؟

أما الشيعة فروت عنه عن طريق آبائه ، وهم ينسبون اليه مسنداً كبيراً لم يطبع بعد [١٢٥] . على ان الطريق التي روى عنها جعفر بن محمد أحاديث الرسول وأخبار السلف لم تكن بعيدة ولا منقطعة ، بل أخذت خطاً قصيراً مستقيما ، فمن النبي الى فاطمة او علي ، ومنهما الى اولادهما ، ومنهم الى الاحفاد . ولم تنقطع الصلة بين أب وابنه منهم قط . فعلي وفاطمة عاشرا النبي واخذا عنه ، وحسن وحسين عاشرا جدهما وأبويهما وأخذا عنهم ، وزين العابدين عاشر أباه الحسين واخذ عنه ،ولعله سمع الى عمه الحسن ، ومحمد الباقر عاشر اباه واخذ عنه. وجعفر ابنه عاشر جده زين العابدين وأخذ عنه ثم اخذ عن محمد ابيه . فحلقات السلسلة لم تنفصم ابداً ، بل اخذت تتداخل وتتماسك وتتصل ، كل حلقة بما قبل التي قبلها وبما بعد التي بعدها ، فكأن نبض حياة الرسول لم يسكت في هذا البيت أبداً ، بل ظل قوله وعمله مسموعاً مذكوراً .

---

(١٢٥) لقد عزموا في النجف على طبع مسند الصادق وهم يجمعون له المال اليوم ، وكان جديرا بواحد من اغنياء المسلمين والشيعة ان يكفي الناس !

وجعفر وان كان سبط القاسم بن محمد ،ويعد في الطبقة الخامسة من تابعي أهل المدينة ، الا انه عاشر اهل الطبقة الثانية من التابعين، وليس يشبه طريقه طريق آخر اذ لا يتداخل الأجداد والأحفاد في طريق أخرى هـذا التداخل . وحين نطق جعفر بما لم يكن نطق آباؤه به من قبل سمّي بالصادق ، لأنّ طريق روايتـه هو لا شبهة فيه ، وحين أكثر من الرواية لم يكن هناك شك في أن آباءه حدثوه بكل ما أخبر أنهم حدثوه به ، وكانوا هم ـ للحوادث التي أحاطت بهم ـ قد أمسكوا عن الحديث به للناس .

●

وانهم ليقولون ان أربعة آلاف رجل رووا عنـه ، فماذا يكونون قد رووا من ألوف الأحاديث ؟ وليس الأمر حسبة تتضاعف فيها الأعداد وتربو ،وانما هو حديث الثقة مهما كان قليلا: وأبو حاتم ـ وهو من رجال الحديث ـ يقول : جعفر الصادق ثقة لا يُسأل عن مثله . ومالك بن أنس ـ وهو أحد من روى الحديث في موطئه عن جعفر الصادق ـ يقول : ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو نور يضعه الله في القلب [١٢٦] .

وقد عرَضَ ابن حجر العسقلاني في كتابه « لسان الميزان »

---

(١٢٦) صفة الصفوة ج ٢ص ١٠١

أسماء الرواة الذين رووا عن جعفر ، ولسنا هنا بمعرض ذكرهم واحصاء عددهم ، وهم هنالك لمن اراد أن يعرفهم ، ولكننا لاحظنا أن جمهور رواته من أهل الكوفة ، ثم يليهم أهل البصرة ، وبعدهم المدنيون والمكّيون . وقد لاحظنا أيضاً أن الكوفيين هم الذين حملوا حديثه الى فارس والى مدينة « قمّ » ومن قمّ انتشر مذهب الامام . ولم تكن كورة يغلب فيها التشيع اكثر من قم ، وأن أهل الكوفة - كانوا من قبل جعفر - أول من حمل الحديث ورواه عن الباقر وابيه زين العابدين [127] ، فحملهم عن جعفر امتداد للتيار الذي كانوا يسيرون فيه .

وكذلك أرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز الى جعفر ابن محمد أفلاذ اكبادها من كل قبيلة : من بني أسد ومن غنيّ ومخارق وطيّ وسليم وغطفان وغفار والأزد وخزاعة وخثعم ومخزوم وبني ضبّة ، ومن قريش ، ولا سيما بني الحارث بن عبد المطلب وبني الحسن بن علي .

ورحل اليه جمهور من الأحرار وأبناء الموالي من أعيان هذه الأمة من العرب وفارس ولا سيما مدينة قم ، فلما كانوا تلاميذ له ذهبوا مذهبه عن ايمان صادق وتشيعوا له ، ولم يَعُدْ أحدٌ منهم

---

(١٢٧) لسان الميزان ج ٢ ص ٧

قطّ عن تشيعه والثقة فيه والايمان به ، وعدّوا اخذهم عنه مفخرة لا تسامى [128]

ومن جعفر الصادق وغيره ، ومن تلاميذه وتلاميذ غيره أخذ الحديث ، وأغرب الأمر أن يقول بعض المتأخرين من الفقهاء : ان الناس لم يأخذوا من حديث جعفر ! يقولون هذا ، ومالك وأبو حنيفة وتلميذه أبو يوسف ثم ابن جريج وشعبة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وغيرهم كانوا قد اخذوا عنه وشبعوا أخذا [129]

القصص

ولست أريد أن اقول : ان جعفر بن محمد كان قصّاصا ، فان القصص وحده واحترافه كان بغيضا عند المسلمين ، لأنه كان سهل المئونة ، وهو اداة افهام العامة ، وفيه تدخل الاكاذيب وبنات الطريق من الترّهات ، لأن القاص لا يُطْلَب منه لفظ بعينه ولا معنىً بذاته ، ومن هنا كانت كراهة القصص ومخافته على الحديث .

وانما اريد ان جعفر بن محمد كان يعلم مسيرة هذا الدين منذ نزل من السماء وسار به أهله ، وكان الصادق لذلك يبسط القصص الديني حين يجمله القرآن ويعرض لفتوى الناس حين يسألونه، وكان

---

(١٢٨) انظر كتاب لسان الميزان ــ مطالب السؤول ص ٥٥

(١٢٩) انظر النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩

رضي الله عنه أتم الناس علما ببناء البيت الحرام [١٣٠] وقصة ابراهيم ومسيره الى بادية الشام ، وقصة تحوّل القبلة الى الكعبة بعد أن صلى الرسول بمكة ثلاث عشرة سنة وهو يولي وجهه شطر بيت المقدس [١٣١] .

وروي عن جعفر انه حدّث عن اقطاع النبي بعضَ الارض لاصحابه : حدّث عن اقطاع النبي عليا بثرقيس والشجرة ، او اقطاعه اياه اربع أرضين : الفقيران و بثرقيس والشجرة . واقطاعه عمر بن الخطاب ينبع [١٣٢]

ولم يكن بدّ أن يعلم جعفر دقائق السيرة في بيت ابي طالب ، فاذا سئل فيما يحتاج الناس الى معرفته منها انبأهم انباء الخبير واعطاهم ما لم يكن احدٌ من الناس يعلمه . ومن جعفر عرف قبر علي وذاع عرفه وان كان لم يكتم فشمّت أريجه الظباء . ومن جعفر عُرِفَ مدى الحزن في نساء بني هاشم على الحسين ، فانهن امتنعن من الزينة فلم يختضبن ولم يكتحلن ، وما طهونَ طعاماً منذ قتل حتى اقتص الله له وشفى صدورهن بمقتل ابن زياد [١٣٣]

---

(١٣٠) مجمع البيان ج ١ ص ٢٠٤
(١٣١) مجمع البيان ج ١ ص ٢٠٧ ، ٢٢٣
(١٣٢) الخراج للقرشي ص ٧٨ – معجم البلدان ج ٨ ص ٥٧٦
(١٣٣) محمد بن الحنفية ص ١٣٥

ومن جعفر ذاعت قصة يوم البصرة ، وحدّث فيها الصادق عن فضل علي على اصحابه الذين حاربوه يوم الجمل. قال أبو يوسف: وحدثنا بعض المشيخة عن جعفر بن محمد عن ابيه أن علياً رضي الله عنه أمر مناديه فنادى يوم البصرة : لا يتبع مدبر ولا يُذْفف على جريح ولا يقتل اسير ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن القى سلاحه فهو آمن . قال جعفر بن محمد : ولم يأخذ من متاعهم شيئاً ١٣٤

ومن جعفر عرفت قصة ابن الحنفية وتخلفه عن الخروج مع اخيه الحسين بن علي ، وقد أخبر الصادق انه تخلف رغبة من اخيه الحسين نفسه ، ولم يكن قعوداً عنه ١٣٥

وهذا قصص لم ينفصل بعضه عن القرآن وانفصل بعضه . ولم يكن جعفر يقعد للناس ليقول لهم ما لا حاجة بهم اليه ، وانما كان يجيبهم اذا سألوا، ويوجز فيما يجيب. وكان القصص عنده علما ولم يكن رواية، وكان تهذيباً ولم يكن تسلية ، وكان صدقاً وحقاً ولم يكن خيالات وأساطير .

العلم بالقرآن

ونَدَر ان يجمع القرآن بصدره أحدٌ كما جمعه الأئمة من أهل

---

(١٣٤) الخراج لأبي يوسف ص ٢١٥ – ويذفف = يجهز
(١٣٥) محمد بن الحنفية ص ٦٦

البيت ، قد جعلوه أول فرائض العلم ، وتعصبوا له وخافوا الـ ـ هم اهملوه ان يتفصم منهم فانكبوا عليه ولهجوا به حتى حضر في اذهانهم حضوره مقروءاً واضحاً بين دفتي المصحف . وما سئلوا في شيء منه الا اجابوا . لم يغب عن خواطرهم قط . وما سئلوا في شيء من غيره إلا ردّوه اليه وأجابوا به ما استطاعوا . والجواب من القرآن مفحم مغيث .

واجتمع عند جعفر بن محمد من علم القرآن ما كان يعلمه منه اهل البيت ، وما كان يعلمه ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء وابن زيد وابن عمر وغيرهم من صحابة النبي والتابعين ، من الذين لم يكن همهم الا الكتاب . ولو لم يصر الى جعفر إلا علم علي بن ابي طالب لكفى ، فمن عليّ أخذ الناس ، وما علم اولئك الا قبسٌ منه. وابن عباس يقول : ما اخذت من تفسير القرآن فعن علي بن ابي طالب . وعن عامر بن واثلة أن علياً قال في احدى خطبه : سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية الا انا اعلم أبليل نزلتْ أم بنهار، ام في سهل نزلت ام في جبل [١٣٦]

واجتمع لدى جعفر كلُّ رأي في لفظ وآيـة تفسيراً وأحكاماً

---

(١٣٦) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٥

وأسباب تنزيل ونظام ترتيب . وله في سورة البقرة وحدها [137] أكثر من عشرين رأياً تناولت الكلام عن رموز القرآن وتفسير ألفاظه و بيان اغراضه واتجاهاته ، وعن قصصه واسباب نزول الآيات وامكنتها ، وعن ناسخه ومنسوخه ، وفرائضه وعظاته واحكامه وفضائله .

ويتضح في تفسير الصادق اتجاهه الى التأويل ، فقد أول الرزق بالعلم ، والشقاق في بعض الآيات بالكفر ، وصبغة الله بالاسلام [138] والحرث في بعض الآيات بالدين [139] والسفيه بشارب الخمر [140] .

ويتضح كذلك أنه يحمل المفهوم الى الخصوص احياناً كثيرة ، وذلك اصابة عالية للغرض المراد ، فحيث فسّر قوله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » بقوله : ومما علمناهم يبثون ، حَمَلَ على الخصوص وعد العلم رزقاً وهو خير الرزق . وليس يمنع من تفسير جعفر ان يراد بالرزق العموم ، اذ حقيقة الرزق ما صح ان ينتفع به ، ولا يمنع تفسيرُهُ ان يفسر بالمال والصحة والاولاد وغيرها ، ولكن الصادق خص العلم لشرفه وعظيم منفعته .

---

(١٣٧) انظر مجمع البيان للطبرسي ج ١

(١٣٨) مجمع البيان ج ١ ص ٣٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٨

(١٣٩) مجمع البيان ج ٢ ص ٣٠٠

(١٤٠) مجمع البيان ج ٣ ص ٨

وحيث أوّل الصادق الحكمةَ بالقرآن والفقه [١٤١] حَمَل على الخصوص لكون القرآن والفقه يضمّان بين صدريهما الحكمةَ جميعا ، وهي لا تخرج عنهما .

ويتضح في تفسيره أنه ـ وان اتفق أو اختلف مع كثير من الصحابة والتابعين في بعض آرائهم ـ لم يخالف أباه الباقر في رأي قط ، وكثيرا ما عرض صاحب مجمع البيان رأيهما معا .

والصادق يذكر علمه بالناسخ والمنسوخ [١٤٢] كما يحكم القول في ردّ المتشابه الى المحكم [١٤٣] . وعنده علم بوجوه القراءة في القرآن ، وقد حكي في كتاب اليواقيت لأبي عمرو المطرزي أن جعفر بن محمد الصادق قرأ « وكالبهم » مكان « كلبهم » في سورة الكهف ـ وهي قراءة لها خطرها ـ وقد أراد الصادق أنه رجل كان يخدم أهل الكهف [١٤٤] من الرعاة أو من غير الرعاة

وأسباب التنزيل يعلمها جعفر . وفيما أثر عنه من ذلك أنه روى عن أبيه أن النبي أمر بالصدقة وجاء رجل بتمر رديء ، فنزلت « ولا

---

(١٤١) مجمع البيان ج ٢ ص ٣٨٢

(١٤٢) انظر مثالا منه بمجمع البيان ج ١ ص ٢٢٨

(١٤٣) ومثاله قوله ان إبليس لم يكن من الملائكة ـ وعليه مذهب الامامية ـ وقد ردوا ذلك إلى قوله تعالى إلا إبليس كان من الجن ـ مجمع البيان ج ١ ص ٨٢

(١٤٤) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٨٧

تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه »[١٤٥]

أما بعضُ ما ردّ جعفر علمَه للقرآن فمنه قول جعفر : دعا اللهُ النـاسَ في الدنيـا بآبائهم ليتعارفوا ، ودعـاهم في الآخرة بأعمالهم ليجازَوْا ، فقال تعالى : يأيها الذين آمنوا... ويأيها الذين كفروا[١٤٦]

●

وللصادق في تفسيره للقرآن آراء بلاغية ذات روعة ، ومن ذلك قوله : ان المراد من قوله تعالى : «ومن دخله كان آمناً» مَنْ دخَلَه فأمّنوه[١٤٧] . ويريد الصادق ـ كما اصطلح أهل البلاغة بعدُ ـ أنه خبر خرج عن معناه الى الانشاء .

وللصادق عليه السلام ذوق لغوي رفيع يَحْكُم به أصدق الحكم وأنبهه على اتجاهاتٍ في نظام آيات القرآن وسرّ ترتيبه على ذلك النّظام . وانظر لتجد عجبا في بعض أحكام له أدركها من سرّ تعاقب آيات الكتاب :

روى هشام بن سالم وأبان بن عثمان عن الصادق قال : عجبت لمن خاف كيف لا يفزع الى قوله سبحانه « حسبنا الله ونعم الوكيل» فاني سمعت الله يقـول بعقبها « فانقلبوا بنعمة من الله وفضـل لم

(١٤٥) الخراج للقرشي ص ١٣٤
(١٤٦) نور الأبصار ص ١٤٨
(١٤٧) مجمع البيان ج ٢ ص ٤٧٨

يمسسهم سوء » . عجبتُ لمن اغتمّ كيف لا يفزع الى قوله « لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » فاني سمعت الله سبحانه يقول بعقبها « فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » وعجبت لمن مُكِرَ به كيف لا يفزع الى قوله « وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » فاني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها « فوقاه الله سيئات ما مكروا » وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع الى قوله « ما شاء الله لا قوة الا بالله » فاني سمعت الله يقول بعقبها « فعسى ربي ان يؤتينِ خيرا من جنتك » [148]

وان لجعفر ـ عليه السلام ـ لرفاهيـة في ادراك معاني القرآن والجمع بينها ، وقد روي عنه في بعض ذلك انه قال : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا ،وهو يسند ادراكه في هذا الجمع لقوله سبحانه: « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » وقوله تعالى « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » [149] فكانت كأنها معادلة حسابية يتساوى فيها من يقنط من رحمة ربه بمن يأمن مكره ، وكلا القانط والآمن من المكر خاسرٌ ضال .

واكثر من الذوق الرفيع ورفاهة الحسّ كان جعفر مع القرآن

---

(١٤٨) مجمع البيان ج ٦ ص ٤٧٢

(١٤٩) مجمع البيان ج ٣ ص ٥٧

وجعفر يقول ـ ولم يقله أحدٌ غيره ـ : لقد تجلّى الله لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون [150]

مسائل الفقه

ولا يستطاع احصاء مسائل جعفر في الفقه لانه مذهبٌ بكامله ولم يَنْس جعفر في فقهه أن يعنى بوجوه معايش العباد ووجوه إخراج الأموال [151] وصلة الصدقات والخراج بالسلطان [152]

•

بين الدين والدنيا

ونسبت الى جعفر بن محمد علوم اخرى لا هي في علوم الدين خالصة ولا هي في علوم الدنيا ، لانها لم تُروَ ولم تكشف ثابتة الاصول كروايات الدين ، ولم تُعلم أصولها وتكشف اسرارها كعلوم الدنيا ، والقول في نسبتها الى الامام الصادق يحتاج الى روية ونظر طويل .

تعبير الرؤيا

فروي عنه انه كان يؤوّل الرؤيا ، ولكنا ـ فيما قرأناه ـ لم

---

(١٥٠) الكشكول للبهائي ص ٦٢٥
(١٥١) اعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٠
(١٥٢) الاحكام السلطانية لابي يعلى ص ٢٣٦

نقف له الا على تأويل رؤيا واحدة أوّلها لرجل [١٠٣] ، ولا يطمئن القلب لهذا المثل الذي ضرب في تأويله للرؤى ، وان كان من غير المستطاع ان يُنكر على مثل جعفر بن محمد أن يؤوّلها تأويلا صادقاً.

الجفر

وهذا شيء لم يدع العلم بما فيه احدٌ من الخلق دعوى ثابتة لا تقلقل فيها ، ولكنهم قالوا انه وعاء ، وقالوا انه كتاب . والوعاء او الكتاب من جلد فصيل من اولاد المعز انفصل عن امه حينما صار له اربعة اشهر . ثم قالوا انه كان عند الصادق من وعاءين احمر وابيض .

اما من قالوا انه كان وعاء فقد ملأوه سلاحاً وكتباً [١٠٤] ، واما من قالوا انه كان كتاباً فقد ادّعى بعضهم انه ميراث علي بن ابي طالب . وادعى بعضهم انه من صنع الصادق وحده بادىء ذي بدء [١٠٥] ، وهؤلاء يقولون : كتب فيه الامام الصادق لاهل البيت

(١٠٣) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٢١ . وقص الدميري أن رجلا رأى في يده عصفورا فقال له جعفر : تنال عشرة دنانير ، فمر الرجل فوقع في يده تسعة دنانير ، فأخبر جعفرا فقال له : قص علي الرؤيا ثانية فقصها وزاد ان العصفور لم يكن له ذنب فقال له جعفر : لو كان له ذنب لكانت الدنانير عشرة . والوضع باد فيها وهناك بعض أخبار بالكشكول للبهائي عن تأويله للرؤيا .

(١٠٤) محمد بن الحنفية ص٩٣ ـ دائرة المعارف للبستاني المجلد ٦ ص٤٨٧

(١٠٥) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

كل ما يحتاجون علمه الى يوم القيامة ، فكأن الكتاب خاصّ باهل البيت ، وكأن العلم الذي يحتاجونه كله به ، وهي دعوى ذات بال . وكان من الجلي ان أحداً من الناس لم يعرف أكان قواعد وكليات يُرجع اليها ام كان اجزاء وتفاصيل . وكان كلاماً مفهوماً واضحاً او رموزا واشارات ؟

وقد نسب بعضهم الى الصادق انه ذكر الجفر في بعض كلامه وذكروا انه اوضح بعض ما فيه الى الخلّص من اصحابه كسدير الصيرفي والمفضل بن عمر وأبان بن تغلب ، وكان ذلك ذات يوم دخلوا عليه فيه وجلسوا عنده [١٥٦] وكان عند جعفر ما يدعوه الى ان يوضح لهم ما عنده في الجفر ، وقد مال هذا القول الى انه قواعد وكليات او رموز تدل على امور .

وقالوا ان الجفر ظل يتوارثه اصحاب الحق فيه حتى صار الى بني عبد المؤمن بمغرب افريقية [١٥٧] . وكذلك صار الجفر وهو غائب عن الناس علماً كأنه كائن حي ، ولم تحتف بذكره والاهتمام به العامة دون الخاصة ، وقد سمعت من العامة منه حكايات ونبوءات ، ثم ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب ، وأبو العلاء في اللزوميات ،

---

(١٥٦) محمد بن الحنفية ص ٩٦

(١٥٧) مطالب السؤول ص ٥٦ ـ الفصول المهمة ص ٢٠٥

وابن خلدون في المقدمة . اما العامة فتسيل في ذكره سيلاً .

واذا صح ان الصادق قد دوّن به حقائق فان ورثته من بني عبد المؤمن لم ينتفعوا بها ، وقد جهلوا ان يعرفوا سرهـا لو اطلعوا عليها ، او انه ذاع عنهم انهم ورثوا الجفر ولم يرثوا قط كتابا به اسرار الدنيا الى ان تزول .

وان في ذلك لعجبا ! لأن اهل البيت ـ وهم المؤدبون بأدب النبوة ـ مأمورون الا يكتموا العلم عن الناس متى كان نافعاً ، فاذا كان ذلك خصيصى لأهل البيت ، فما للناس والكلام فيما ليس لهم شأن فيه ، ولا سيما اذا صح القول بانه لن يعلم حقيقة هـذا الكتاب الا المهدي المنتظر خروجه عندهم في آخر الزمان [158]

والرأي الصريح ان كل ذلك يحتاج الى تأمل وحسن تقدير ، فان هذا الكتاب او تلك الآثار في الوعاء من سلاح وكتب لو كانت كائنة بالجفرين ما كان منها شيء ينفع الناس ، فأحكام التوراة والانجيل لغير المسلمين ، وليس لهم ان يأخذوا بها الا مـا كان مصدقاً بين يدي الرسول الكريم من القرآن ، ولم يبق في سلاح النبي وعصا موسى من قوة، لان محمداً لا يحمله، وعصا موسى لا تفعل المعجزات مهما القيت. وكان الله يصنعها وهي في يد الكليم

(١٥٨) الامام علي ص ٣٢٠

ومع ذلك كله فلم تكن عصا موسى دائماً تصنع المعجزات ، وانما هي تشترك مع العصي الاخرى في خصائصها ومنافعها الدنيا ، كان يهش بها على غنمه وله فيها مآرب اخرى .

ولكن ذلك كله لا يمنعنا من التصديق بما قيل عن مواريث من صحف للنبي وثياب وسلاح ، وانها صارت الى الحسين ثم اودعها ام سلمة ، فأخذها زين العابدين ، ثم توارثها الأئمة حتى صارت الى الصادق ثم الى اولاده من بعده ، وذلك كله غير ذلك الجفر المذكور .

الجامعة

والكلام عن كتاب الجامعة المنسوب الى علي كرم الله وجهه شبيه بما قيل عن كتاب الجفر ، ولم تتحقق عنه اخبار .

كتب شتى [159]

وقد نسبوا الى الصادق كتباً لم يذكرها الثقات عنه ، وانما حملت اسمه من بعده دساً عليه [160] ، ومن بين هذه الكتب كتاب « اختلاج الاعضاء » [161] وقيل إنه مكذوب عليه ، اما

(١٥٩) انظر مؤلفات الصادق المنسوبة اليه بأعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٧٦

(١٦٠) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ العدد ١١ ص ٤٧٣

(١٦١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٠٥

كتاب « الاهليلجة » [١٦٢] فهو برواية المفضل بن عمر تلميذ الصادق وقد قال صاحب اعيان الشيعة انه موجود ضمن كتاب « البحار » وقال في مقدمة البحار : ان سياقهما ـ والضمير الى كتابي الاهليلجة والى توحيد المفضل ـ يدل على صحتهما [١٦٣]

واما كتاب « توحيد المفضل » ـ ويقال انه رسالة من الصادق للمفضل بن عمر حين اعلمه ان اقواماً ظهروا من اهل هذه الملة يجحدون الربوبية ويجادلون على ذلك ويسأله ان يرد عليهم فيما ادَّعوا [١٦٤] ـ فقد نشر في العراق حديثاً ، ويقول صاحب اعيان الشيعة انه مذكور بتمامه في كتاب بحار الانوار ، ولكن « راغبا الطباخ » احد شيوخ السنة في حلب أصدره باسم كتاب « الخلق والاعتبار » ونسبه للجاحظ ، وهو عينه كتاب توحيد المفضل لولا تقديم وتأخير وحذف واضافة بما يستقيم في « توحيد المفضل » بأنه للصادق ، وما يستقيم في « الخلق والاعتبار » بأنه للجاحظ .

وهذه القصة كفيلة ان تضيء امامنا نوراً فيما نسب الى الصادق والى الجاحظ حين نوليها كل العناية ، وحتى اليوم لم يُقدَّر لي ان

(١٦٢) الالحاد في الاسلام ص ١٠٦

(١٦٣) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٧٧

(١٦٤) انظر توحيد المفضل وكتاب الاهليلجة

أصير الى رأي خالص في الكتاب ، فانه ليبدو أن كتاب « توحيد المفضل » الذي هو « الخلق والاعتبار » نسب الى الصادق لانـه يسلك سبيله لبيان اسرار الخلقة ، وهو طريق اشتهر به جعفر ، فانه حين كان يُسأل عن شيء يسرع الى بيان سرّه والحكمة منه ، كما سئل عن سر تحريم الربا فقال : لئلا يتمانع الناس المعروف ، وكما سئل عن سر خلق الذباب فقال : ليذل به الجبابرة .

وكذلك يبدو من نظام الكتاب ودقة ترتيبه وابوابه ونسبة كثير من مسائله الى الاطباء والفلاسفة ورجال العلم انه أليق بالجاحظ والطبعة التي تنسبه الى الجاحظ تهتم بهذه الاسانيد ، ولكن الطبعة التي تنسبه الى الصادق تمحوها [165]

والصادق كان يعرف مسائل كثيرة من الطب والكيمياء والعلم ، ولكن رجلاً كالطبرسي صاحب مجمع البيان ذكر كثيراً من المسائل المتفرقة التي سألها المفضل بن عمر استاذه الصادق ، وليس فيها شيء مما في هذا الكتاب .

وقد ذكر ياقوت كتاب « التفكر والاعتبار » في عداد كتب الجاحظ في معجم الادباء [166] وذكره السندوبي في عداد كتب

---

(١٦٥) وذكر صاحب أعيان الشيعة انه طبع منسوباً الى الصادق مرة بمصر وأخرى باستانبول ولكنه قال : ولم أره - أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٧٧

(١٦٦) معجم الادباء ج ١٦ ص ١٠٨

الجاحظ ولكنه اضطرب فأثبته مرة وعاد فأنكره [167]

علم الغيب

وينسبون الى الصادق انه أخبر عن علم اهل البيت بأنه علم ما كان وما يكون ، وأنه نَكْتٌ في القلوب ونقرٌ في الاسماع .

وينسبون اليه انه فسّر النكت في القلوب بالالهام ، والنقر في الاسماع بأصوات الملائكة ، وفرّقَ ما بينهم و بين الانبياء انهم لا يرون اعيان الملائكة بعيونهم .

والناس ـ ومنهم الشيعة ـ مختلفون في بعض ما نسب الى الصادق من هذا الكلام ، فقومٌ يصدقون ، وقوم يَرَوْنَ في ذلك جراءة على الصادق و يقولون انهم بالغوا في نسبة ذلك اليه ، والحق الذي يقال : ان التعبير عن العلم بانه نكت في القلوب كلام ليس به من بأس ، وهو أشبه بكلام علماء النفس عن مواقع دقات المعلومات

(١٦٧) ذكره السندوبي في عداد كتب الجاحظ تحت رقم ٤٧ بالصفحة ١٢٨ من كتابه أدب الجاحظ ، ولكنه عاد في صفحة ١٥٣ من الكتاب نفسه فذكره تحت رقم ٥ في عداد الكتب التي نسبت للجاحظ وليست له ، وقال : عثر به محمد راغب الطباخ الحلبي وطبعه منسوبا الى الجاحظ سنة ١٩٢٨ ثم قال : ولعله للحارث بن أسد المحاسبي أحد أفاضل الزهاد . وليس في أخبار المحاسبي ما يدل على ذلك . فلم لا يكون كتاب التفكر والاعتبار الذي اثبته السندوبي للجاحظ هو نفسه كتاب الدلائل والاعتبار الذي نفاه عنه والسندوبي يعترف بعدوان النساخ على العناوين وتغييرها ؟

وانشائها أغواراً في مخ الانسان ، وما من شك في ان هناك استعداداً وقبولا في بعض الناس اكثر من بعض . والعلم الذي يصل اليك في يسر وتحسه كأنما جاءك همسا أو وقوعا مرة واحدة في القلب فلا بأس عليك من ان تسميه إلهاما . وليست خواطر الشاعر والاديب وهدايات العالم والمخترع الا الهامات تدق صدورهم ورؤوسهم وتثب اليها وثبا . فمن ذا الذي يجرؤ على ان يعترف بها لأصحاب هبات شتى وينكرها على اهل البيت وهم صفوة الناس احساسا وصفاء وقرباً من السماء ؟ اما الذي اختلف عليه الناس من اصوات الملائكة التي يسمعونها ، فما الذي يمنع ان يجعلوه من طريق المجاز ؟ وعند المجاز تحل المعضلات [١٦٨]

وكيف ينكر ذلك وأحاديث النبي تخبرنا عن مقاربة الملائكة لاهل العلم من الناس ، فكيف بأهله من اهل البيت ؟ عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله

(١٦٨) لقد دعا ذلك الى التقول فقال صاحب الروض الباسم من الزيدية : ان شرط الامام ان يكون يعلم الغيب ، انظر الروض الباسم ج ٢ ص ٩ — وقال ابن الجوزي : ان الامامية قالوا ان الامام يعلمه جبريل فاذا مات بدل مكانه غيره — انظر نقد العلم والعلماء ص ٢٢

فيمن عنده » وقال صلى الله عليه وسلم « ارحموا طالب العلم فانـه مكدود البدن ، ولولا انه يعجب بنفسه لصافحته الملائكة عيانـا » وامثال ذلك كثير .

وكيف يُجرؤ على النكران ، وديكارت ابو المدرسة العقلية كان يدعي ان اسلوبه المنطقي الذي اخرجه من الشك الى اليقين كان الهاما من الله الهمه اياه ؟

●

وللصادق امور هي إنباءٌ بما يحدث ، وقد امتد بين انبائـه بالحوادث ووقوعها ـ احياناً ـ أمد طويل ، وأحياناً لم يمرّ أمد ، وكان من بينها ما له مقدمات ، ومن بينها ما ليس له . وكان مما له مقدمة انباؤه بـأن أبا جعفر المنصور صاحب القبـاء الاصفر سيلي الخلافة ، وكان مما ليست له مقدمة ـ كما يبدو ـ هذا الخبر :

حدّث النضر بن قرواش قال : أكريتُ جعفر بن محمـد من المدينة الى مكة ، فلما ارتحلنا من بطن مرّ قال لي : اذا انتهيت الى فخّ فأعلمني ، قلت : أو لست تعرفه ؟ قال : بلى ، ولكنني اخشى ان تغلبني عيني ! فلما انتهينا الى فخ دنوت من المحمل فاذا هو نائم فتنحنحت فلم ينتبه ، فحركتُ المحمل فجلس ، فقلت : قد بلغتَ ، فقـال : حُلَّ محملي ، فحللته ، ثم قال : صلْ القطـار فوصلته

ثم تنحيت بـه عن الجادة فأنخت بعيره فقـال : ناولني الاداوة والركوة ، فتوضأ وصلى ، ثم ركب ، فقلت له : جعلت فداك ! رأيتك قد صنعتَ شيئا ،أهو من مناسك الحج ؟ قال : لا ، ولكن يقتـل ها هنا رجل من أهـل بيتي في عصابـة تسبق أرواحُهُم اجسادهم الى الجنة [169] ثم كان أنْ قُتِل في هذا المكان عينه الحسين بن علي بن الحسن . وهذا الخبر رواية فرد ولم يشع كما شاع خبر صاحب القباء الاصفر .

وكان للصادق أمور أخر توقع في بعضها جزاء الله العاجـل فوقع ، ودفع في بعضها عن نفسه غضب السلطان فدفعه الله عنه .. ومن الأوّل أن رجلا اتهمه عنـد المنصور بأن أموال العراق تجبى اليه بلا سوط ولا عصا ، فأحْضِرَ هذا الشاكي بين يدي المنصور في حضرة الصادق ، فقـال له الصادق : أحقٌ ما رفعتَ الى أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قـال الصادق : فاستحلفه يا أمير المؤمنين ، فاستحلفه المنصور ، فبدأ الرجل يقسم بيمين يذكر فيها اللهَ ورحمته ويتمرغ في صفاته العليّة ويمجده بها فقال له الصادق ليس هكذا الأن الرجل اذا مجّد اللهَ في يمينه أمهله بالعقوبة ، ولكنْ قل : أنا بري من الله، والله بريء مني ، وأنا خارج من حول الله وقوته راجعٌ الى حول

(١٦٩) مقاتل الطالبيين ص ٣٧ ؛

نفسي وقوتها . فحلف الرجل ، فوقع ميتا .

وقد راع ذلك أبا جعفر المنصور فقال للصادق : انصرف يا أبا عبدالله ، فلستُ أسألك بعدها عن شيء [170] . وهذا الحادث يقع لغير الصادق ، لعوامل ودوافع من هيبة الموقف ورعب الضمير ، وليس أكبر اثما من أنْ يحلف حالفٌ كذبا بين يدي خليفةٍ وامام ، هذا ابن رسول الله وذاك ابن عم رسول الله .

ومن الذي دفع به الصادق عن نفسه ما كان يدعو به الصادق في سرّه فيردّ عنه البغي والشر ،وقد قيل انه حين دخل على المنصور بياخَمْرَا كان يحرك شفتيه بدعاء ، فقيل له في ذلك فقال : كنت أقول : اللهم بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبنبيك محمد أتوجّه ، وأعوذ بخيرك من شرك ، اللهم سهل لي حزونته وكل حزونة ، وذلّل لي صعوبته وكل صعوبة ، وأعطني من الخير اكثر مما ارجو ، واكفني من الشر اكثر مما اخاف وأحذر ، فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم [171]

●

---

(١٧٠) الف با ج ١ ص ٤٨٥
(١٧١) نزهة الجليس ج ٢ ص ٣٧ ـ الف با ص ٤٨٥ .

أدب الصادق

أما أدب الصادق فله فيه فصول من الكلام هي الحكمة وهي فصل الخطاب ، وانه ليوجز في ابلاغ حتى تصلح كل كلمة منه لان تكون أثرا : أعظِمْ بنعمة في مصيبة جلبت أجرا ، وأفظِعْ بمصيبة في نعمة اكسبت كفرا ! ما كلّ من رأى شيئاً قدر عليه ولا كل من قدر على شيء وفق له ولا كل من وفق أصاب له موضعا ، فاذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والاصابة فهناك السعادة . ان للامور بغتات فكن على حذر . اياك ومرتقى جبل سهل اذا كان المنحدر وعرا .

ولقد كان جعفر من اهدى الرجال اقتداء بالقرآن في بلاغته واهتمامه بأسلوبه الحكيم ، وقد وقع الذباب على وجه المنصور فدفعه عنه ، فعاد فدفعه حتى اضجره ، فدخل جعفر بن محمد فقال له المنصور: أبا عبدالله ، لِمَ خلق الله - عز وجل - الذباب ؟ قال جعفر : ليذل به الجبابرة .

وكان جعفر يرى الاستدلال على أصالة الرأي بحسن الالقاء اذا كان الرجل متكلما ، وبحسن الاستماع اذا كان سائلا ، وبحسن الجواب اذا كان مسئولا . وقد سئل ما البلاغة فقال : من عرف شيئا قل كلامه فيه ، وانما سمّي البليغ بليغا لأنه يبلغ حاجته بأهون

سمعيه [172]

حرية الأدب

ولم يغض جعفر بصره عن حركة الأدب حوله ، فكان خبيرا عالما بالشعراء ، شديد التأثر بكلامهم وحركتهم ، وكان هيوبا لهم وبهم محتفيا ، ولا سيما شعراء زمانه الذين طلبوا الدنيا من أيدي ملوكها ، وقد رأى مسالمتهم أفضل من ملاحاتهم ، لأنهم سرعان ما يخوضون في الباطل ، وكان يقول : اياكم وملاحاة الشعراء فانهم يضنّون بالمدح ويجودون بالهجاء [173]

وفيما بين ذلك يُفهم ان جعفر بن محمد اخذ بيد الشعراء وناصرَ الأدب ، لأنه أخاف الناس من الشعراء وهجاءَهم ، وثبّت كيانهم ، ولم ينادِ بكتم أنفاس الشعر واغلاق منافذ الحرية على الأدباء .

السيد والكميت

حدّث محمد بن سهل قال : دخلتُ مع الكميت على جعفر الصادق في أيام التشريق فقال : جعلت فداك ! ألا انشدك ؟ فقال

---

(١٧٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ ـ أعيان الشيعة ج ٤ق٢ص١٩٧، ١٨٩ ، ١٩٣ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٦
(١٧٣) الفصول المهمة ص ٢١٠

جعفر : انهـا أيام عظام ! قال : إنها فيـكم ، قال : هات ، فانشد الكميت قصيدته التي اولها :

ألاهل عم في رأيه متأمّـلُ — وهل مدبر بعد الاساءة مقبلُ
وهل أمة مستيقظون لدينهم — فيكشف عنه النعسة المتزمّـل
فقدطال هذا النوم واستخرج الكرى — مساويهم لو أن ذا الميل يعدل
وعطّلت الأحكام حتى كأننا — على مـلة غير الـتي نتنحـل
كلام النبيين الهـداة كلامنا — وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها — على أننا فيهـا نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها — لنا جُنّـة مما نخاف ومعقل

فكثر البكاء وارتفعت الاصوات ، فلما مرّ على قوله في الحسين عليه السلام :

كأن حسينا والبهاليل حوله — لأسيافهم ما يختـلي المتبقل
وغاب نبي الله عنهم وفقـده — على الناس رزء ما هناك مجلل
فلم أر مخذولا لأجل مصيبة — وأوجب منه نصرةً حين يخـذل

فرفع جعفر يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخر ، وما اسرّ وما أعلن ، وأعطـه حتى يرضى ! ثم اعطاه الف دينـار وكسوة ، فقال له الكميت : والله ما احببتكم للدينـا ، ولو اردتها

لأتيت من هي في يديه ، ولكنني أحببتكم للآخرة . فأما الثياب التي أصابت أجسادكم فاني أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله [174]

اما السيد الحميري فقد لقي جعفراً الصادق بشعر نازل عن طبقة السيد الحميري ، وقد قيل انه منحول عليه ، ولكن لعله قاله ارتجالا فنزل به عن طبقته الشعرية . ومطلع قصيدته كما ذكرها ابو الفرج :

تجعفرت باسم الله والله اكبر وأيقنت ان الله يعفو ويغفر

ولم يكن السيد الحميري في استقامة الكميت ولا تحمسه ووفائه، فقد ذهب يمدح أبا جعفر المنصور بعدها ، ولكن الصادق غفر للحميري ذلك واخطاء اخرى علم بها الناس من سيرته ، وقالوا ان جعفر بن محمد ذكر السيدَ بعد موته فترحم عليه وقال : ان زلّت به قدم فقد تثبتت الاخرى [175]

صناعة الدعاء

وان صناعة الدعاء والروحة اليه في الضيق والسعة طريق في مذهب المسالمة الظاهرية والثورة السلبية ، ذلك عند الضيق.اما عند السعة فهو اندفاع نحو الشكر الذي هو خلق الأوفياء . ولم يكن احد

---

(١٧٤) خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ١٤٠ - التطور في الشعر الأموي ص ٢٤٨ وقد اشار شوقي ضيف الى نقل الخبر عن الخزانة والاغاني ولكن الاغاني يقول ان لقاء الكميت كان للباقر وليس للصادق فليراجع.

(١٧٥) الأغاني ج ٧ ص ٥ ، ١٥

أقدر على هذه الصناعة من اهل البيت ، وقـد أعانتهم مقدرتهم البلاغية على اثارة النفوس والهاب مشاعرها . والدعـاء تعبير عما في النفس من ادراك لطيف ،فالتعبير به يريح النفس ويهدئها كأنه الأنغام التي تعبّر عن النسب المُدْرَكة للالحان بين الضلوع .

وللصادق أدعية كثيرة طويلة وقصيرة، وهو يقول في دعاء له : اللهم لك الحمدُ ان اطعتك ولك الحجـة ان عصيتك ، لا صنع لي ولا لغيري في احسان،ولا حجة لي ولا لغيري في اساءة [176]. فليُنظر الى مثل هذا الدعاء الذي ينسب الطاعة لفضل الله و يستوجب العقاب على المعصية ،ويمحو الكبر والزهد عند الصنيع والاحسان ، ولا يقبل حجة ولا دفاعا في اساءة . اليس هذا تأصيلا لنظـام حكم صالح ، ورسما لطريق واضح ، من حيث كان كلاما منظوما في دعاء ؟

وأية ضراعة لله أخشع من رجاء عفوه لأنه أهل للعفو في دعاء جعفر حين قال : اللهم انك بما انت اهل له من العفو أولى بما أنا أهل له من العقوبة [177]

إجابة الدعوة

واستجابة الدعوة شيء ليس من عمل انسان أصغر ولا اكبر ، ولكنه عمل الله ، وامرها متعلق بمشيئته وحده ، وقد وافقت مشيئة

(١٧٦) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥
(١٧٧) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٤

الله دعوة جعفر بن محمد مرات فتحققت دعوته ، فليس يقال الا ان ذلك من فضل الله !

ومثل جعفر يُتَّقَى ، مخافـة ان يكون ملهم الشعور بتحقق ما يتجه اليه بظنه وتجمّع مشاعره . ومشيئة الله وقـدره لا يعرف متى تفد وتنزل ، وقد توافق التلبية زمنَ دعاءٍ من انسان فتتحول انظار الناس الى الظاهر دون الخفيّ والى السبب الرابط دون السبب الخالق .

وقد قالوا : كان جعفر بن محمد لا يسأل الله شيئاً الا أجابه من قريب [١٧٨] . وهو قول مطلق ، وكأني بالحق ان يقال : لقد سأل جعفر بن محمد ربه وكثيراً ما اجابه من قريب ، وانما اقول ذلك ـ لا نقصا من مكانة جعفر عند ربه ولا رفعاً من نفوسنا فأين نحن منه ـ ولكن مخافة ان يظن الجهلاء أنّ المشيئة تتعلق بألفاظ الدعاء !

وكم من دعاء قاله جعفر يناجي به ربه فأنقذه مما يخاف ، ولقد كان له دعاء عن جده رسول الله صلى الله عليـه وسلم وكل شيخ في بلاد السند كان يحدث صاحبه به، نقله اليهم احد رجال الاسكندرية لأن الله انقذ به راويه جعفر بن محمد من امر عظيم [١٧٩]

---

(١٧٨) اسعاف الراغبين ص ٢٢٧
(١٧٩) الف باء ج ١ ص ٤٨٥

الرأى والدين

•

القرآن

وكم بالقرآن من معجزات ! وان من معجزاته علمه ان الناس سيسيلون في الكلام بالقدر سيل الماء او سيل البحر فيقول الله تعالى : « ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفَوْن علينا »، وسدّ عليهم القرآن السبيل وأعدّ لكل ملحد جوابا .

وما من ريب ان هذه قدرة خارقة من معجزات الكتاب ، فما يكاد الريب يدخل قلبا حتى يدفعه عنه القرآن دفعا ، وما يكاد يظن ظانّ انه استغنى عنه الا جذبه اليه وحاجّه وأخضعه !

وجاء القرآن وهو يعلم انه لن يخوض في الباطل اكثر ممن جاءهم العلم لقدرتهم على ابداع البدعة واصطناع الهوى فقال تعالى : « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » وقال « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم »فأعد لهم المعجزة

لافحامهم وقال : « ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلا » وقال « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآيـة ليقولـن الذين كفروا ان انتم الا الا مبطلون ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » [١٨٠]

وكان القرآن يعلم ان الناس سيحرّفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم به ليا . كان القرآن يعلم كل ذلك فأعد لكل سؤال جوابا ، وتمت به المعجزة ، وكم بالقرآن من معجزات !

وكان رسول الله واصحابه يعلمون ما في القرآن من معجزات فخافوا ان يُهمَل القرآن فيخفى على الناس ادراك معجزه ثم لا يجدون شفاء لصدورهم ان لم يلجؤوا اليه يوم يُخاضُ في الضلالات خوضا ، فحث الرسول على حفظه ومداومة النظر فيـه ، واشار الى صعوبته وشدة تفصّمه وفراره من الصدور ان لم يُرْعَ بالحفظ ويداومْ عليه

فعن ابي موسى رضي الله عنـه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشدّ تفلتا من صدور الرجال من الابل من عُقُلِـها [١٨١]

---

(١٨٠) سورة فصلت والشورى وغافر والكهف والروم .
(١٨١) تيسير الوصول ج ١ ص ٢٠٢

وعرف اصحاب النبي ذلك فاقبلوا عليه إقبال الهيم يحفظونه ويَعُونَه في صدورهم ويبحثون احكامه واسراره . وكان القرآن قد اوصى بيوت النبي ان تقرّ نساؤه فيهن ليذكرن ما يتلى عليهن من آيات الله والحكمة فقررن وقرّ بناتهن ، وصارت الروحة الى القرآن من كل رجل وكل امرأة من اهل البيت فريضة كالجهاد .

●

ثم لم يلبث الزمن ان حقق معجزة القرآن وظنّ الرسول فخاض الناس في الباطل ، وسال الناس في الكلام بالقَدَر ، وكثير منهم كانوا دخلاء في العربية فعجزوا عن الالمام بالحديث والقرآن ، وانّ فيها لامورا جساما تحتاج الى تفكير طويل ممن يعرف العربية فكيف بمن هم من الدخلاء ! والقرآن ثقيل الصعوبة حتى على الراسخين في العلم ، ولقد لام عمر بن الخطاب من أعيتهم الاحاديث أن يعوها ، فكيف بالقرآن وهو أشد فراراً من الصدور وتفصيا !

وتنازع الصحابة في كثير من مسائل الاحكام ، ولكنهم لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال ، ومع ان اصحاب النبي كانوا يزيدون على مائة الف ،وروي انهم بلغوا مائة الف واربعة عشر الفا ـ فانهم رأوا وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ان اصحاب الرأي اعداء السنن،أعيتهم الأحاديث ان يعوها

وتفلتت منهم ان يحفظوها ، فقالوا في الدين برأيهم فضلّوا وأضلوا

ولقد عجز عمرو بن عبيد عن احصاء الكبائر لانه لم يكن أحصى القرآن، فرجع الى جعفر فاخبره انها الشرك واليأس من رَوْح الله والأمن من مكره، وعقوق الوالدين، وقتل النفس وقذفُ المحصنات واكل مال اليتيم ظلما والفرار من الزحف واكل الربا ثم الزنا واليمين الغموس والغُلول ومنع الزكاة المفروضة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة عمدا ونقض العهد وقطيعة الرحم. وقد فصلها جعفر لعمرو واحدة واحدة واورد له ما نزل من القرآن فيها وانها كلها مستوجبة غضب الله وعقابه . فخرج عمرو له صراخ من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم!

ولقد عجز كثير من الناس عن فهم مدلولات الكلام ، اهو حقيقة ام هو مجاز ؟ ؟ اللهم الا من نهم من الموالي في العلم فسدّده الله ، حتى انهم ليقولون ان عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء لم يكن في اول امره يفرق بين الوعد والوعيد حتى افهمه اياه أبو عمرو ابن العلاء [182] . ولقد اخبروا عن عطاء بن ابي رباح ـ وقد كان فقيه الحجاز غير مدافَع ـ أنه كان تواقا الى الاستزادة من العربية ، فلعلّه فاته شيء ، وقد حدثوا عنه انه كان يقول : وددتُ اني

---

(١٨٢) مجمع البيان ج ٣ ص ٩٣

أحسن العربية ! ـ وكان يومئذ قد بلغ التسعين [183]

وقد لجأ من يريد النجاة الى القرآن يلتمس منه جوابا ،ووقف حفظة القرآن من اهل البيت ومن غيرهم يصدون التيار . وكان التيار عنيفا قويا في الشام والعراق ، ثم امتدت امواجه وصواخبه الى الحجاز ، ولكنه لم يجد في الحجاز مجازا ،اذ وقفت المدينة كلها تصدّه عنها ، ووقف جعفر بن محمد حصنا حصينا يرد التيار في قوة عارمة تحطم امواجه . وكان مع جعفر كل العدة وكل القوة ، وكانت معه المعجزة : كان معه القرآن .

الصانع الاول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى ان يفكر المؤمنون في ذات الله لئلا يهلكوا ، وأباح لهم ان يفكروا في خلقه ليعرفوه من قدرته ، اما الوصول الى حقيقته وذاته ففي ذلك هلكة العقول دون الوصول .

وما لبث الناس حين مات رسول الله ان انبعثوا يبحثون عن ذات الله ليدركوها ، ووفد سائل الى علي بن أبي طالب يسأله قائلا: أين كان ربنا قبل ان يخلق السموات والارض؟فقال له عليّ : «أين»

---

(١٨٣) الف باء ج ١ ص ١٩

سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان [184] . ووفد الى علي سائل آخر يقول له : أين الله ؟ فقال علي :الذي أيّـن الأيْـن لا يقال فيه أين .فبيّـن علي لسائله فساد سؤاله بان الأينيّـة مخلوقة ،وكان سبحانه وتعالى قبْـلها [185]

لا يستطاع ادراك ذات الله مهما حاولت العقول . وفي نفس الطريق التي سلكها علي في البيان عن ذات الله سلك جعفر بن محمد فقال : من زعم ان الله تعالى في شيء أو من شيء او على شيء فقد أشرك ، لأنه لو كان على شيء لكان محمولا ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان مُحْدَثاً ، والله يتعالى عن جميع ذلك [186] .

ولم تكن هذه أسلم الطرق وحسب ، ولكنه لا طريق غيرها . وان لم يكن فمن هو الذي ادرك كنه الله ؟ ان معرفة كنهه تعالى شيء وراء طور العقول وقوتها ، وهو امر لا يستقل العقل بادراكه من طريق الفكر وترتيب المقدمات ، وانما يُدْرَك بنور النبوة وولاية المتابعة ، وهو اختصاص الهيّ يختص به الانبياء وأهل وراثتهم مع

---

(١٨٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٥٩
(١٨٥) الف با ج ١ ص ٢٠١
(١٨٦) الانصاف ص ٣٧ - الف با ج ١ ص ٢٠٢

حسن المتابعة وتصفية القلب من وَضَر البِدَع وتنقية الفكر من نزعات التفلسف .

والسلف يرونَ العلة لذلك انه لو كانت العقول مستقلة بمعرفة الحق واحكامه لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وانزال الكتب ، ولكن الله تعالى قال : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وأشباه هذه من الآيات ١٨٧

●

وان الاسلام لم يرهب العقل بذلك ولكنه رحمه من ان يضنى ودعاه ألا يأرق بالمحاولة في غير طائل . وقد جرب العقل ان يجري على شططه فلم يصل ، ووقف كثير من الفلاسفة بعد جهد المشوار يمسحون سطور تجاربهم ويضحكون من انفسهم في حسرة على الزمن الذي اضاعوه تحت اعباء التفكير المضني ، من حيث لم يرثوا غير الافلاس . وفرقٌ ما بين الانبياء والفلاسفة ان اولئك جاءوا ليبعثوا الطمأنينة في النفوس ويرحموا العقول ان تضنى من الضلالة اما هؤلاء فجاءوا ليثيروا العقول حتى تخوض مضطرباً قد تصل بعده الى الطمأنينه أو الى قلق لا يزول .

ووراء دعوة الاسلام وقف جعفر بن محمد للفتن الناشبة حوله

(١٨٧) لوائح الانوار ص ٨٩

ـ قريبا منه وبعيدا عنه ـ حربا عوانا يحشد لها القوة مع القوة ، وينفذ اليها ذكاء في اثر ذكاء ، فقد كان الالحاد آخذا في غزو العقول ، والكلامُ يجرُّ بعضُه بعضا حتى يجرَّ الى الكلام في ذات الله ، وقد رأى جعفر ذلك فاضطرب له واخذ يزوف الناس عن الخوض والتوغل سالكا بالناس موارد الفطرة ، اذ لا رجاء في شيء من وراء الايغال فيما لا يمكن ان يُدْرَك ، فصرخ فيهم قائلا : ان الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله فاذا سمعتم ذلك قولوا : لا اله الا الله الواحد الذي ليس كمثله شيء [188]

●

الرأي السابق

وماذا كان يجول في خاطر ابن المقفع وصاحبه ابن أبي العَوْجاء وهما ينظران الى الناس يطوفون حول البيت جماعة جماعة ؟ كان يجول في خواطرهما ان هؤلاء الناس ليسوا الا قطعانا تطوف حول البيت وتؤدي الفريضة عند المشاعر في جهل وغباوة . وامتد نظر ابن المقفع فرأى شيخاً جالساً في البيت وقد تخشع وأرسل فكره ، فأثر في قلب كل من التفت اليه ، فقال ابن المقفع لصاحبه : لا واحد من هؤلاء يستحق اسم انسان الا هذا الشيخ الجالس ـ واشار الى

(١٨٨) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ١٥٠

جعفر – أما غيره فرعاع وبهائم !

ولم يأخذ ابنُ أبي العوجاء برأي ابن المقفع حتى يمتحن ذلك الانسان المتخشع ويقف منه على علم وفقه ، فاذا لم يكن منه علم وفقه حُشِر في زمرة الناس . وتقدم ابن ابي العوجاء من جعفر وسأله ، فأجاب جعفر . وما زال هذا السائل يصغر وهذا المسؤول يكبر حتى صدقت في نفس ابن أبي العوجاء نظرة ابن المقفّع من انه لا واحد يستحق اسم الانسان غير جعفر بن محمد .

قال ابن أبي العوجاء : ما منعَ اللهَ من الظهور لجميع خلقه ودعوتهم الى عبادته حتى لا يصبح اثنان منهم على خلاف ؟ لماذا اختفى عنهم وأرسل اليهم رسلا ؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم لكان ذلك اسهل الى الاعتقاد به !

فأجاب جعفر : كيف اختفى عنك مَنْ اظهر قدرته في نفسك أنت وفي نمائك ؟ . وكان جواب جعفر جوابا موجزا ،ولكنه كان واضحا مفحما بليغا . وما زال به جعفر يوضح له ويفحمه حتى قام عنه ابن أبي العوجاء يقص للناس خبره ويقول : وظل يحصي لي قدرة الله التي في نفسي ، والتي لم أستطع رفضها حتى ظننتُ ان الله قد نزل بيني وبينه [189]

---

(١٨٩) الالحاد في الاسلام ص ٦٩

وجرى ذلك قديما ايام جعفر بن محمد ، ثم جاء الزمن بعده بفلسفات كثيرة ، ولم تزل كلها واقفة دون أن تصل الى كنه الله تعالى ، حتى انهم ليقولون ان « هربرت سينسر » قال : ان النظر في أصل الوجود كفرٌ بالاله ، وانه لمن الميسور للمرء أن يدون اشعارا كثيرة في كفر المتقين [190] . وما يريد « سينسر » بالمتقين الا اولئك الذين يحاولون معرفة حقيقة الصانع الازلي القديم

ولقد عُدَّ موقف جعفر بن محمد من هذه المسأله جهادا عظيما لاقرار الفكرة الاسلامية في الصانع الاول . حقا انها سُبِقت بأحاديث من رسول الله وكلمات من علي بن ابي طالب واصحاب النبي والتابعين ممن اشتغلوا بالعلم ، ولكنها لم تخض الحرب التي شنها جعفر بن محمد بمداومته الكلام فيها واقامة الحجج عليها .

انه من الحق ان يقال ان هذه القضية قد سبق اليها جعفر بن محمد ، او كان في اول السابقين . وقد سبق اليها فصاغها في حجة ميسورة قريبة واسلوب صاف سهل يسيغه ويقبله كل من سلم فهمه ولم يعاند . وقد تعرض لها من بعده متكلمو المسلمين والفلاسفة منهم ومن غيرهم ، ومنهم من اعادها الى مثل رأي الصادق في يسر وصفاء ، ومنهم من عقّدها وفرّع منها لتنسب الفكرة اليه .

---

(١٩٠) مذكرات في تاريخ الفلسفة القسم الثاني ص ١٥

وقد تعرض لها ـ في العصور المختلفة من غير المسلمين ـ اصحاب المدارس العقليـة والنفعية والمـادية ، وجاءوا لاثباتهـا بالمنطق او صدقوها ولكنهم نفروا من اثباتها ، أو جاءوا ليثبتوها بالحس المرئي: بالبصر المجرّد او تحت عدسات المجهر .

اما الامام الصادق فقد رأى نفي الأينيّـة والحدوث عن الله ، كما انه اثبت انه المؤثر في الموجودات ، فاذا عددنا هـذا اصلاً لم نجد المتكلمين قد زادوا على هذا الاصل شيئاً ، وانما فرّعوا منـه واكثروا التفريع : الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة ومن تبع مدارسهم منـذ اول الامر الى مدرستي الازهر والنجف . والمستبحر في علم الكلام يجد عند حجة الصادق في اثبات الصانع خالق الكائن ـ وهو غير الكائن ـ يجد عندها الحجة التي لم تكسر بعد ولم يُزَد عليها ، واظنها لن تكسر ولن يزاد عليها .

وديكارت الفرنسي ابو المدرسة العقلية حين اثبت بفكره المجرد واجب الوجود الذي خلق الكائنات لم يأت بجديد حين قال : اني افكر فأنا موجود ، وليس وجودي بنفسي فأنا غيركامل ، واذن فالكامل هو الذي اوجدني والكامل هو الرب فهو موجود ، وهذه حقيقة لا شك فيها وهو الكمال المطلق ١٩١

---

(١٩١) مذكرات في تاريخ الفلسفة القسم الثاني ص ٤

ومثل ديكارت « هيجل » الذي يقول : نلاحظ في العالم وجود علاقات تنظّم الأشياء تنظيما داخليا وخارجيا ، بحيث تكون الوسائل موجّهة نحو غايات معيّنة ، والأجزاء مرتبطة بالكلّ الذي هو سابق لها . فالعالمُ مجموع اضافات غائية تنظم الأشياء، ويَفرضها من الخارج كائن كلّي الحكمة والتدبير : هو الله [١٩٢]

وجاء «جمس جينز» في كتابه « الكون الغامض » يثبت علميا كوْن الله خارجاً عن الكائن ، وقد ساق بين أدلته عليه أن الرصاص حين ينصبّ على فرقة من الجنود فيتوزع الرصاص كثرة وقلة على أجساد الجند ، لا نستطيع أن نحكم على أحد انه سيسبق الى الموت أولا ، لا الجندي الذي أصيب بواحدة ولا المصاب بمائة، وقد يموت من لم يُصَبْ قبل أن يموت من أصيب ، فلو كانت مادة الجند هي الآله لأدركت أمرها ونظّمت بينها عملية الحياة والموت فمات المصاب اصابة بالغة قبل غيره ، ولكن عملية الموت تجري بين المصابين بلا نظام . فثبت أن مادة الجند ـ وهي من الكائن ـ لا تدرك امرها ولا تنظمه ، وانما هو سرّ خارج عنها ، ويسوق «جينز» دليلا آخر أدّق من ذاك، وذلك انه اذا وُضِعَ تحت المجهر خلية فتوالدت منها الخلايا وَجرت حركة الحياة والموت

(١٩٢) رسالة البراهين على وجود الله .

بين الخلايا المولودة ، لم ينظر الموت الى الجدّة والقِدم او الصحة والمرض او الضعف والقوة ، بل خبط بينها خبط عشواء . فثبت له ان الصانع خارجٌ عن هذه الخلايا ، وان سرّ الحياة والموت عنده وفي يده هو ، ولو كان السرّ فيها لكانت الحياة وكان الموت يجريان في خليقة الخلايا بكمال النظام .

ان هذه المحاولات الفكرية المتوسعة والعلمية الدقيقة لا تعدّ خالقة لنظرية واجب الوجود وخالق الكائنات ، ولكنها تعدّ محاولات لاثبات النظرية وتنويعا لطرق الاثبات ، ولا يَرُدُّ رادٌّ بانقطاع «ديكارت» عن التأثر بما سبق له من قراءة العلم حين فكّر في نظريته ، ولا التجاء «جمس» الى طرق الاثبات بالآلة والحساب، فان سلسلة الفكر الانساني متصلة ولو تغيرت صُوَرُ التفكير وادلة الاثبات . ومن فخرنا ان تكون النظرية بدأت من عندنا، وكانت من معجزات القرآن وأهل القرآن .

•

واكثر الفخر في ذلك يرجع الى جعفر بن محمد حيث ثبت للقضية ثبوتا طويلا ، ولا يُستَطَاع حصْرُ أحاديثه فيها . واننا لنكتفي بالقليل ، فقد سأله هشام بن الحكم عن الله فقال : ان الله تعالى لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء، وكلُّ ما وقع في الوهم فهو غيره

وسأله رجلٌ يقال له محمد الحلبيّ : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقال الصادق : نعم ، رآه بقلبه ، فأما ربنا جلّ جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين [193]

ولقد كان في عداد التابعين رجلٌ يقال له الجعد بن درهم ، كان قد خرج فابتدع وضلّ ، وكثرت أخباره في الابتداع والزندقة ، وقد خيّل اليه انه جاء بما لم يجيء به أحد من الفكر والابتداع ، فجعل في قارورة ترابا وماء وتركهما ، فاستحال ما في الزجاجة الى هوام وديدان ، فقال : أنا خلقتُ هذا لأني كنتُ سببَ كونه ! فبلغ ذلك جعفر بن محمد فأيقن بجهله وغباوته وقال : ليقل كم هو ؟ وكم الذكران منه وكم الاناث ان كان خلقَه ؟ وليأمر الذي يسعى الى هذا ان يرجع الى غيره ! فبلغتْ الجعدَ مقالةُ الصادق فرجع عما قال مخذولا نادما [194]

الكلام في القدَر

منذ فتنة غيلان الدمشقي [195] وبعد موت عمر بن عبد العزيز والناس يسيلون في الكلام في القدر سيل الماء او سيل البحر. ينكرون

(١٩٣) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١١٦
(١٩٤) لسان الميزان ج ٢ ص ١٠٥
(١٩٥) انظر الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ١٩٥

القدر ، مع أن كثيراً من الصحابة قد نهى الناس أن يخوضوا في ذلك مع الخائضين . سئل علي بن ابي طالب عن القدر فقال : طريق مظلم فلا تسلكوه ، وسئل ثانية فقال : بحر عظيم فلا تلجوه، ثم سئل ثالثة فقال : سرّ الله فلا تتكلفوه [196] . وامسك الناس منذ ذلك الحين عن الكلام في القدر حتى كان مَعْبَدُ الجُهَنّي فتكلم فيه ، أخذه عن رجل مجوسي - كما قال ابنُ تيمية في كتابه شرح الايمان - ثم اخذ غيلان الدمشقي عن معبد ، فلما انتحله عمرو بن عُبَيْد تلميذ واصل بن عطاء سلك اهل البصرة مسلكه . ثم كثر بالشام والبصرة، فأما بالحجاز فقد كان قليلاً .

وقالوا ان اول امره بالحجاز كان حين احترقت الكعبة فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى ، وقال آخر : لم يقدر الله هذا ![197] ثم راحت الفتنة الى المدينة فسئل جعفر عن القدر فقال : هو امرٌ بين امرين : لا جَبر ولا تفويض . وقال فيه : ان الله تعالى اراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا ؟ [198]

---

(١٩٦) الكشكول للبهائي ص ٢٣٦
(١٩٧) لوائح الانوار البهية ص ٢٥١
(١٩٨) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥

وقال الصادق لزُرارة بن أعين : يا زُرارة ، أعطيك جملةً في القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، جُعِلت فداك ! قال : انه اذا كان يومُ القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهِدَ اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم !

الرأي والدين

لا رأي لأحد في ان يغيّر من أحكام ديننا ، ولم يكن لأحد من اتباع هذا الدين ان يخالف امراً فعله رسول الله ليُقْتَدَى به ، وقد تعرض علي بن ابي طالب لهذا الحكم فقال : لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بمسحه من اعلاه ، ولكنْ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح أعلاه [199]

ومن هذه الناحية وقف جعفر بن محمد يمنع ان يُدْفَع بالرأي في الأمور التي صدرت فيها أحكام دينية ، وتعرّض جعفر لكل من شاع عنه انه يُعْمِل رأيه ، كي يعلّمه جعفر ويهديه ، وما أظن احداً من فقهاء المسلمين جميعاً يكون له غيرُ هذا الرأي في احكام الدين .

والرأي ان كان مبنياً على غير أصل من كتاب او سنة فهو مذموم ، وجميع البدع انما هي رأي على غير أصل ، ولذلك كانت

(١٩٩) تيسير الوصول ج ٣ ص ٨٣

ضلالات لانها كلام في الدين بالتخرّص والظن . وقد خرّج ابن وهب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : اصبح اهل الرأي اعداءَ السنن ، أعيتهم الاحاديث أن يَعُوها وتفلتت منهم ٢٠٠

ومعلوم ان الآثار الذامة للرأي لا يمكن ان يكون المقصود بها ذمّ الاجتهاد على الاصول في نازلة لم توجد في كتاب ولا سنة ولا اجماع ممن يعرف الاشباه والنظائر ويفهم معاني الاحكام من حيث لا يعارض كتاباً ولا سنة ،ولا ما كان عليه سلف هذه الامة ٢٠١

الصادق والنعمان

وقد قيل ان الصادق ناظر أبا حنيفة ونهاه عن الرأي . ولكن المناظرة التي ساقوها لم تدل على ان الرجلين كانا يختلفان . فان أبا حنيفة لم ينكر على الصادق رأيه ، وما كان ابو حنيفة يرى ان ينقض حكما من احكام الدين . وها هو ذا أبو حنيفة نفسه يرد على الصادق حينما قال له : بلغني انك تقيس– يرد ابو حنيفة قائلاً : انما أقيس فيما لا أجد فيه نصاً ٢٠٢ . وانما بدت المناظرة حول المقدرة

(٢٠٠) انظر الباب الثاني في ذم البدع من الاعتصام ج ١ ص ١٢١
(٢٠١) انظر « المسألة الخامسة والعشرون »من الاعتصام ج ٣ ص ١٧٠
(٢٠٢) نور الابصار ص ١٤٥

على إدراك السر في اختلاف الاحكام ، وذلك امرٌ كان يقدر عليه الامام اكثر مما كان يقدر عليه النعمان ، وعلى الأقل في الزمن الذي تناظرا فيه .

وان الصادق لأجلّ من ان يشغلها خصومة في الدين بينه و بين ابي حنيفة او غيره ،لان جعفراً كان يوصي الناس ويقول : اياكم والخصومة في الدين فانها تشغل القلب وتورث النفاق [٢٠٣]

ولقد كانت هناك معرفة قديمة بين بيت النعمان و بيت علي بن ابي طالب ، فان ثابتاً ابا النعمان كان ذهب الى علي بن ابي طالب وهو صغير ، فدعا عليٌ بالبركة فيه وفي ذريته . قال اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت : ونحن نرجوا من الله أن يكون قد استجاب الله ذلك لعلي بن ابي طالب فينا [٢٠٤]

ولم يجتمع ابو حنيفة والصادق على الاقرار باحكام الدين في الحدود ،والايمان بالقدر وحسب ،ولكن في كثير من الآداب ايضاً: فأبو حنيفة كالصادق ممسك عن الكلام في السلف ، وقد سمع الى عطاء بن ابي رباح كما سمع جعفر ، وقيل انه ممن تشيعوا حين رأوا ميله لاهل البيت ،حتى قيل انه افتى بالخروج على المنصور مع ابراهيم

---

(٢٠٣) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٣
(٢٠٤) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٢٦

ابن عبد الله المحض [205]

قالوا انه بايعه مع نفر من وجوه المسلمين فيهم بشير الرحال والاعمش وعبّاد بن منصور القاضي - الذي ينسب اليه مسجد عباد بالبصرة - والمفضل بن محمد وشعبة الحافظ وكثير من نظائر هؤلاء، وكان ذلك أثر خطبة ابراهيم بن عبد الله على منبر البصرة، تلك الخطبة التي قال فيها: اللهم قد ترى خروجنا ولم نخرج أشراً ولا بطراً ولا رغبة في الدنيا ولا حرصاً عليها ولا ابتغينا ملكا الا لنرد على هذه الامة ألفتها ونردها الى معالم دينها، ولنعلمها سنة نبيها عليه الصلاة والسلام [206]

وقد اتبع ابو حنيفة ومعه صفوة الناس ابراهيم لما رأوا من صدقه في دعوته، فانه لم يكن خطيباً بليغاً وحسب، ولكنه كان عاملاً بما يقول، فقدجاءوه الى البصرة بمال فقالوا: يا ابن رسول الله، قد أتيناك بمال تستعين به، فقال: من كان عنده شيء فليُعِنْ به أخاه، وأما ان آخذه فلا، ثم قال: هل هي الا سيرة علي بن طالب او النار! [207]

---

(٢٠٥) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٨٥
(٢٠٦) غاية الاختصار ص ١٨
(٢٠٧) غاية الاختصار ص ١٩

هذا ، ولقد قالوا ان أبا حنيفة لقي عطاء بمكة فسأله عن شيء فقال عطاء : من أين أنت ؟ فقال : من أهل الكوفة ، ثم جعل عطاء يسأله حتى قال له : فمن أي الأصناف أنت ؟ فقال أبو حنيفة: ممن لا يسبّ السلف ، ويؤمن بالقَدَر ، ولا يكفّر أحدا بذنب فقال عطاء : عرفت فالزم ! [٢٠٨]

قال ابن شُبْرمة : دخلتُ أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق ، فقلت : هذا رجل فقيه من العراق ، فقال جعفر : لعله الذي يقيس الدين برأيه ! أهو النعمان بن ثابت ؟ قال ابن شبرمة : ولم اعلم باسمه الا ذلك اليوم ، فقال أبو حنيفة : نعم أنا ذلك - أصلحك الله - فقال له جعفر : اتق الله ، ولا تقس الدين برأيك ، فان اول من قاس برأيه ابليس ، اذ قال : « أنا خير منه » فأخطأ قياسه فضلّ .

ثم قال جعفر : أيما أعظم عند الله اثما : قتل النفس التي حرّم الله بغير الحق أم الزنا ؟ فقال أبو حنيفة : بل القتل . قال جعفر : ان الله تعالى قد قبِل في القتل شهادتين ، ولم يقبل في الزنا الا اربعة ، فأنى يكون لك القياس ؟

ثم قال جعفر : أيما اعظم عند الله : الصوم ام الصلاة ؟ فقال

(٢٠٨) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٣١

أبو حنيفة : الصلاة . قال جعفر : فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ اتق الله يا عبد الله . ولا تقس الدين برأيك ، فانا غداً بين يدي الله فنقول : قال الله وقـال رسول الله . وتقول أنت وأصحابك : سمعنا ورأينا ، فيفعل اللهُ بنا وبكم ما يشاء ١٠٩

•

هذا ما يقال انه جرى بين الصادق والنعمان ، أو لعله بعض ما كان أو اكثر مما كان ، وفي كل ذلك لم يظهر فيه خلاف بينهما ، فان أبا حنيفة لم ينكر على الصادق شيئا مما قال ، وليس فيما ترك أبو حنيفة من فقه ما يخالِفُ فيه برأيه حكما ثابتا من القرآن أو الحديث.

ولقد أراد بعض أهل القياس أن ينقذوا القصة فقالوا ان الزنا لا يقبل الا اربعة شهداء طلبا للستر ، وزاد بعضهم ان الجناية فيـه من اثنين فوجب لكل واحدٍ شاهدان. وقالوا ان الحائض لا تقضي الصلاة دفعاً للمشقة ، ولأن الصلاة تتكرر خمس مرات في اليوم ، أما الصوم فمرة في كل عام .

ومع كل ذلك فليس في القصة ما يشعر أن أبا حنيفة خرج في هذه القضايا ذاتها الـتي ضربها جعفر عن احكام الدين ، ولم تخرج

---

(١٠٩) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣ والحوار هنا طويل وقد تركنا منه ما لا دخل له في امور الفقه الديني

عن كونها أدلة على ان احكام الدين جاءت ومن ورائها أسرار ، فلم يزد هؤلاء على ان كشفوا عن بعض هذه الاسرار .

وأبو حنيفة نفسه لا يتعصب لرأيه كل التعصب، بل انه يقول: اذا بلغك رأيي ووجدتَ حديثا صحيح النسب الى الرسول - عليه الصلاة والسلام - يناقضه فاترك رأيي واتبع الحديث فانه مذهبي . والشافعي مثله يقول : اذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط . هذا ما بين الرأي والحديث الصحيح ، اما القرآن فهو أولى ولا رأي لأحد مع قول القرآن .

وقد سمع أبو حنيفة لجعفر وأقرّ بفقهه ، ولكنه لم يترك القياس فيما ليس فيه حكم في الدين ، وقد أولع به ، حتى ان عليّ بن عاصم حدث عن أبي حنيفة حديثا فيه فكاهة قال : دخلتُ على أبي حنيفة وعنده حجّام يأخذ من شعره ، فقال للحجام : تتبّع مواضع البياض ، فقال الحجام : انه يكثر لو تتبّعتُه ، فقال أبو حنيفة : تتبّع مواضع السواد لعله يكثر ! قال علي بن عاصم : فلو ترك أبو حنيفة قياسه تركه مع الحجام ! ٢١٠

وأعجب الأمر أن الحديث وقف بين الصادق والنعمان عند حدّ ذلك الكلام ، ثم قيل ان النعمان تبع جعفرا يتعلم منه عامين كاملين

---

(٢١٠) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٤٨

ثم قيل انه تشيع له . وجعل أبو حنيفة يقول : لم أر أفقه من جعفر ابن محمد . ولكنّ أتباع الرجلين تعدّيا القول في صحة الرأي أو بطلانه الى الخصومة المرة واللجاج الشديد ، حتى تناول بعضٌ منهم البعض الآخر بالشتم والافساد والشماتة عند الموت ، وصار للبغضاء بينهم تاريخ مؤسف شأن الاتباع في كل زمان وكل مكان [٢١١]

تأصيل مذهب

وحارب جعفر بن محمد في قوة قاهرة وحجة دامغة مَنْ تشيعوا لعمه محمد بن الحنفية او لغيره من غير بني الحسين وألزمهم الحجة ، فرجع كثير منهم الى عمود بيت الحسين يجعلون فيه الامامة . وقد نجح جعفر نجاحا باهرا اذ قصد الى الدعاة لابن الحنفية فأزالهم عن التحنّف الى التجعفر ، وقد حدث ذلك مع مثل السيد الحميري الشاعر وحيّان السرّاج [٢١٢] اذ بيّن لهما ما انحرفوا فيه من الاعتقاد بامامة ابن الحنفية ، وما زال يعلمهم ويفحمهم ويقص عليهم ويخبرهم بموت ابن الحنفية ودفنه وتقسيم ميراثه على مشهد من محمد ابن علي أبيه ومشهد من الناس حتى فهموا وأيقنوا .

وكان فيما قاله جعفر : ما مات ابن الحنفية حتى أقرّ لعلي بن

(٢١١) انظر اخبار النعمان بن ثابت تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٢٣
(٢١٢) محمد بن الحنفية ص ٨٦

الحسين بالامامة [٢١٣] . وكذلك نسبوا الى جعفر بن محمد أنـه هو الذي أعلن نظام طريق الامامة من بعده، إذ كانت لأبنائه وأحفاده خاصة ، وذلك حيث يقول : ان الامامة لا تكون في اخوين بعد الحسن والحسين عليهما السلام [٢١٤]

ولم يكن مظنوناً من أئمة المذاهب انهم كانوا يدرون انهم يرسمون مذاهب لهم ، وانما هي آراء وفتاوى في جميع مسائل الدين أفتوا بها ورأوها، ثم جمعها اصحابهم ودوّنوها فصارت لها مزية تفردها وخاصة تميزها فصارت مذاهب ،لكل واحد منهم او جماعة مذهب. أما جعفر بن محمد فقد كان يعلم عن بصيرة واعية وخطة ،وقوته أنـه يرسم مذهباً .

وكانت لاثارة الحبّ لأهل البيت من طريق العلم أقدر وأرسخ من اثارة الحب لهم بأنهم وارثو خلال النبوة، ولذلك حشد الصادق جهده وكان معلما ، وقد فطن ــ رضي الله عنه ــ الى ان طريق النضـال من اجل اهل البيت او من اجل مـذهبهم في الدين لا يكون الا بحب بصير يتعلم فيه المحبون اقدار من يحبونهم في ضياء من النور . ثم كان تعليم انصاره مفاهيمه خطوة قوية في النضال .

---

(٢١٣) محمد بن الحنفية ص ٧٤

(٢١٤) فرق الشيعة ص ١٠٠

وقد علم الصادق أن العقيدة لا تكتسب لها الغلبة ما لم يعتنقها جمهور كبير ثم يناضل من أجلها . ولم يعجز جعفر بعدُ وهو يثبت آراءه عن غزو قلوب الناس اجمعين .

فقه المدينة

ولقد حدث ابو حنيفة قائلاً : «ما رأيت أفقـه من جعفر بن محمد [215] » . هذا الفقه الذي نشأ بالمدينة واستند الى اعمال اصحاب رسول الله واهل بيته بها . وعملُ اهل المدينة كان احد الاصول التي اتخذها مالك ، فعند اثباته عادة فقهية كان يعتمد العادةوالرأي المعتبرَين عند علماء المدينة على العموم ، وقد لام الامام مالك تلميذه الليثَ بن سعد لما بلغه انه يفتي في البلدان خلافاً لما عليهاهل المدينة، فرد عليه الليث ينكر ذلك ويقول : وما من احد أشد تفضيلاً لعلماء اهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليـه مني ! [216]

بل ان ابن عباس سبق مالكاً بأنه كان يغدو فيبدأ بالمهاجرين ليسألهم عن اسباب التنزيل ، فان لم يجد عند واحـد منهم أتى قرى

---

(٢١٥) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩
(٢١٦) نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ج ١ ص ٢٤٦

الانصار فتتبعهم رجلاً رجلاً حتى يجد حاجته [٢١٧]

وهذا وان رده اصحاب ابي حنيفة في بعض نواحيه ولاسيما ما يرجع الى الرأي منها دون الذي يرجع الى النقل – فان فيه بعض النظر . ولأمر مّا بدأ البخاري في كل باب بذكر أحاديث اهل المدينة ، ما وُجِدَتْ ، ثم يتبعها غيرها . ويقول المشتغلون بالفقه من المحدَثين انها طريقتهم – قد تأثروا فيها بالبخاري – فهم يقدمون رواية اهل المدينة اذا عارضتها رواية غيرهم [٢١٨]

ولقد قيل ان رأي مالك لعله كان بتقديم اهل المدينة لان مالكاً لم يرحل منها الى بلد آخر ، فدار معظم حديثه على مـا رواه الحجازيون [٢١٩] . ولكن بعض الحنفية – وابو حنيفة عراقي – يميلون ميل مالك لان اصحاب النبي وعترته هم الاصل في الامر بالمعروف لقوله عليه الصلاة والسلام : تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا : « كتاب الله وعترتي » [٢٢٠]

ومن هنا كانَ قدرُ الفقه الذي صدر عن جعفر بن محمد رضي الله عنه وأرضاه .

---

(٢١٧) الف با ج ١ ص ٢٢٤
(٢١٨) أصول الفقه ص ٣٤٣
(٢١٩) التشريع الاسلامي ص ٢٤٤
(٢٢٠) شرح المنار ص ٧٣٩

ثورة المدينة

•

المدينة والاطراف

حين أخذ الامويون يسيرون تحت ظلّة الزوال تفتحت العيون من حولهم على أضواء لم تعد أبصار بني أمية تمتد اليها. واشتعلت في هذا الضوء نيران دعوتين: دعوة لبني العباس، ودعوة لاولاد علي. ومع انهما كانا في غلاف واحد هو الدعوة لبني هاشم فقد أخذت الشرنقة العباسية تلف سريعاً لتتفتح، وكانت كلوزة الزهرة تفتحت من بُعد ولم تزل مقفلة من داخلها.

وكذلك اشتدت الدعوة في اطراف البلدان لبني العباس، اما في المدينة فلم تزل دعوة هاشمية، واللمعة المتألقة فيها لبني علي، ولكن المدينة وهي مرمى أبصار الثائرين في الاطراف لم تكن في قوة تستطيع ان تفرض بها ارادتها، وانما تنتظر او تتطلع ليأتيها الحل من الخارج شأن كل من لا يملك قوة ينفذ بها مشيئته كما يشاء.

وثبّت أهل المدينة ابصارهم في انفسهم فقلبوا الامور على قدْر ما رأوا ، ونظروا في تقليد الخلافة من شاءوا ، واتفقوا واختلفوا واجتمعوا وتفرقوا ، وأحدثوا ضجيجاً في مفرّغة من الهواء لم يُسْمع قطُّ من بعد سحيق ولا قرب قريب .

ولكن جعفر بن محمد وهو في صميم قلب الزهرة التي لم تتفتح كان رجلاً بصيراً حصيفاً ، كان يسمع الدعوة في الآفاق يتعالى صوتها لبني العباس ويجور على حق ابناء عمومتهم – والناس أو مَن معهم القوة والظروف التي تعين ينتظمون في سلك الدعوة انتظاماً – وكان جعفر بن محمد يرى ذلك حقيقة لا شك فيها ، فيعرف الكفة الراجحة والزمن المقبل ويراهما رأي العين ، ويرى الخلاف في داخل المدينة امراً لا خير تحته لبني حسن ولا بني حسين ، وانما الدنيا مقبلة على بني عمومتهم ابناء العباس ، ومن عيْن هذا اليقين الذي لا يلتبس بشك نظر جعفر من ثُقْب الغيب .

●

ومنذ وقعة الطفّ التي قتل فيها الحسين السبط وصُرع خير اهل الارض حسباً ونسباً ، او منذ اختلف معاوية على عليّ – منذ ذلك الحين انقسم اهل البيت فريقين : فريق يرى ان يُحمل السيف ليرد للدين مهابته وللدنيا عدالتها . وفريق يرى ان يُسْلَك طريق

العزلة والسلامة لتحفظ على الدين مهابته وتترك الدنيا لهوانها ، وكلا الفريقين كان على الحق ، لم يفارق الصواب ، وكلا الفريقين كان من اعداء السلطان .

ولا عتب ولا ملامة على احد منهما ، اذ ان أولئك وهؤلاء لم يدعوا الجهاد الاصغر ولا الجهاد الاكبر ، بل ظلوا اعداء الدنيا ، تطحنهم كلما تمنىّ لرحاها ان تدور على اجسادهم ، ولم تدَع صارخاً منهم ولا صامتاً الا دارت عليه بثقالها .

وفي قلب المدينة اراد فريق السيف الثائرون من بني هاشم ان يبايعوا لرجل من بني علي ، ثم تورّعوا في الاختيار حتى لا يكون في الرجل الذي يختارونه نقصاً ، بل يكون خالص الكمال ، وتورعوا فاختاروا ان يكون اسمه محمد بن عبد الله ليكون يُمناً في الطالع لانه اسم رسول الله .

وكان لأحد بني الحسن المثنى بن الحسن بن علي ولد اسمه عبد الله ، وكان في طليعة القوم ور ياستهم بعد محمد بن علي الباقر ، وقد صار له من العلم والفضل ما ملأ دنيا زمانه حتى خافه عمر بن عبد العزيز حين وفد عليه في دمشق فردّه الى المدينة محتجاً له بحاجة بني هاشم اليه ، ولكنّ الزاهد دفع عنه الأزهد لئلا يفتتن به الناس فيميلوا

اليه [٢٢١]

وكان عبد الله بن المثنى عربياً خالصاً وهاشمياً محضاً ، لم يكن في أمهاته احد من فتيات الموالي أمّاً ولا أبا ، وكانت هذه مفخرة اتخذها ، واتخذها الناس له ليؤيدوا ابنه محمداً وينصروه ، ثم يؤيدوا اخاه ابراهيم كذلك من بعده وينصروه . واحتشدت حول محمد آراء الرجال والنساء تؤيده وتدعو له ، وتجمع حوله الدلالات التي تؤيد ظنهم في انه مهديّ اهل البيت ، وليكون خليفة على الناس . وكأنما كان كل الناس معه الا جعفر بن محمد فقد رأى فيه غير ما رأى الناس .

•

فلما أفلتْ شمسُ بني أمية اجتمع بعضُ اصحاب الحق من اهل المدينة بالأبواء[٢٢٢] وكانوا من بني هاشم وانصارهم ، وسَبق الناسَ الى الاجتماع بيتُ العباس وبيت الحسن ، ومثّلَ بيت العباس ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ومعه ابو جعفر المنصور وصالح بن علي . ومثّلَ بيت الحسن بن علي عبد الله بن الحسن المثنى ومعه ابناه محمد وابراهيم . ثم شهد الاجتماع معهم بعض

(٢٢١) الخليفة الزاهد ص ٢٠٦
(٢٢٢) الأبواء = مكان بأعلى المدينة

بني عثمان .

وسبق الى الكلام بنو العباس : بدأه صالح بن علي فطلب اليهم ان يعقدوا البيعة لرجل منهم ، وأيّد عبد الله بن المثنى رأى صالح - وكان عبد الله من اقوَل الناس [223] - وأشار الى ابنه محمد يرشحه لصفاته في الحسب والنسب ، فأمّن الناسُ على قول عبد الله ، وقاموا فبايعوا لابنه محمد ومسحوا على يده .

وأقبل العباسيّ ابو جعفر المنصور على العلويّ محمد بن عبد الله اقبالا فريداً ، يبايعه ويتحمس له ويبالغ في اجلاله . كان ابو جعفر في ذلك اليوم اشد الناس دعوة له ، واقبل يبايعه وهو يرتدي قباءً أصفر جعله فريد يومه تحمساً وملبساً . ومن فرط انفراده برأيه وتحمسه في ذلك اليوم كنّوه بصاحب القباء الاصفر ، ثم ما زال المنصور يتحمس لمحمد ويجله في كل مكان ، حتى قالوا انه حج معه فأقبل عليه يبايعه مرة اخرى بالمسجد الحرام حتى يَعُمَّ خبرُ البيعة الناس فلما خرج محمد من المسجد تقدم المنصور يمسك بركاب محمد ويقول لمن يسأله عنه : هذا محمد بن عبدالله ، هذا مهديّنا أهل البيت [224]

رأي الصادق

ولم يكن بنو هاشم جميعاً قد حضروا اجتماع الابواء ، وانما غاب

---

(٢٢٣) غاية الاختصار ص ٢٧

(٢٢٤) مقاتل الطالبيين ص ٢٠٨، ٢٣٩

منهم سادة ورؤساء ، وغاب معهم عنه بعض من لهم شأن ورأي : غاب عنه من رأوا الا يبايعوا حتى يختبروا، إذ كانوا قد رأوا الا ينتخبوا اماماً الا اذا تحققوا من عدله ، وقد جعلوا ذلك مبدأ لهم ومذهباً . وكان من هؤلاء عمرو بن عُبيد صاحب واصل بن عطاء ، فلما سئل لماذا لم يحضر ولم يبايع ؟ قال : لا ابايع رجلاً حتى اختبر عدله [٢٢٥] وغاب عنه من لم ير في محمدٍ الحسنيّ ما رأى الناس فيه . ثم غاب عنه من امتد بصره وراء جدران المدينة فرأى الدعوة قد فرضت طريقها . وكان من هؤلاء الذين لم يروا رأي الناس جعفر بن محمد .

وتلفت عبد الله المحض حوله ليرى المتخلفين عنه وعن ابنه فلم ترُعه الا غياب جعفر بن محمد ، وكان حينئذ اعظم من يمثل بيت الحسين، بل كان سيد بني هاشم جميعاً في زمانه [٢٢٦] ، فأرسل عبد الله اليه من فوره فجاء جعفر اجلالا له ورعاية لسنه ، ثم اخبروا جعفراً بما حدث من الرأي والبيعة فأنكر عليهم كل الذي فعلوا .

فلما رأى الناس اباء جعفر بن محمد وانكاره، قالوا له : مدّ يدك نبايعك ، فأبى وقال : انها ليست لي ولا لهما ـ يريد محمداً وأخاه

---

(٢٢٥) مقاتل الطالبيين ص ٢٠٩

(٢٢٦) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠

ابراهيم – ثم نهض وخرج[٢٢٧]

وكان رأيُ جعفر بن محمد ألا يلج عبد الله المحض وولداه هذا الباب ، ولن يفتحوا الرتاج ، والامر علي عبد الله جدّ عسير ، فان أصر عبد الله وتمسك برأيه في ابنه فان أقطعَ الرد أنه ليس في وصية علي بن ابي طالب أن يكون أحد من أبناء الحسن اماماً ، وان كان عبد الله يرى الامامة لولديه محمد وابراهيم ، أحدهما بعد الآخر ، فانه ليس في وصية علي كذلك ان يلي الامامة اخوان غير الحسن والحسين .

ذلك امر امامة الدين ، أما اذا كان عبد الله يريد لولديه خلافة الدنيا فان البيت العباسي قد صار له فيها اعلى صوت واقوى دعوة ، وجعفر بن محمد كان ينظر امارة الناس فيراها تدنو عجلى من أقدام بني العباس ، ويرى المنصور صاحب القباء الاصفر في ذلك اليوم ، يوم الابواء ، انما يتحمس لمحمد بن عبد الله ثورة للعاطفة التي غمرته من عواطف بني هاشم ، ولو فكّر لصمت وامسك ، لانه عما قريب سيكون صاحب الامر ، فاذا اصبح له فويل لمحمد من عاطفة ابي جعفر ، وويل لاخيه وابيه منه ، بل ويل لبني علي جميعاً !

هذا رأى رآه جعفر بن محمد وقاله ، ثم لم يلبث ان صار حقاً

---

(٢٢٧) جامع كرامات الاولياء ج ١ ص ٣٧٩

وصدقا ، فقال قوم : أخبر جعفر بن محمد بالغيب ، وقال قوم : صدق جعفر فيما ظن وحسب ، واختلف الناس في ادراك العلة ومعرفة السر ، ولهم ان يختلفوا ، ولا حرج ، ولكن الامر الذي لا شك فيه ان قولة جعفر بن محمد صارت حقاً وصدقاً ، وكأنما كان جعفر حين قالها ـ واثقاً مطمئناً ـ ينظر من ثقب الغيب .

•

وقال جعفر لعبد الله : لا تفعلوا ، فان هذا الامر لم يأت بعد ، ان كنت ترى ان ابنك هذا هو المهدي فليس به ، ولا هذا أوانه ، وان كنت تريد ان تخرجه غضباً لله ، وليأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر فانا لله ، ولا نَدَعُكَ ـ وانت شيخنا ـ ونبايع ابنك .

وهكذا أنصف جعفر نفسه وأنصف الحق ، وقضى على التاريخ الا يتهمه بأنه خَذَل بني الحسن لان له مطمعاً و بنفسه حسداً . ولكن عبد الله المحض غضب وقال له : لقد علمتَ خلاف ما تقول ! ووالله ما اطلعك الله على غيبه ! ولكن يحملك على هذا الحسدُ لابني !

قال جعفر : والله ما ذاك يحملني ! انها والله ما هي اليك ولا الى ابنيك ! ثم نهض متوكئاً على يد عبد العزيز بن عمران الزهري ،

فلما انتحيا و بعدا عن الناس قال جعفر لعبد العزيز : أرأيت صاحب القباء الاصفر ؟ قال : نعم ، رأيته ، قال جعفر : فانه سيقتله !

واستخف عبد العزيز بن عمران بما سمع من جعفر وحسبه حسداً منه ، وظنّ عبد الله على الحقّ وانه صدق حين رمى جعفراً بالحسد لابنه ، ولكنه لم يبد لجعفر بما في نفسه ثم عاد يقول له : أيقتل المنصور محمداً ؟ قال جعفر : نعم ، فصار الظن بعبد العزيز مثل اليقين فقال في نفسه : حسده ورب الكعبة ! ثم رجع الى القوم يهمس في آذنهم بما قاله جعفر بن محمد ، فوقعت المقالة من نفوسهم لما يعلمونه من صدق جعفر وانفضوا متفرقين .

أما عبد الله المحض وولداه فمضوا في طريقهم دون ان يلقوا بالا لما قاله جعفر . واما جعفر فصار كلما رأى محمداً دمعت عيناه وقال: بنفسي هو ! ان الناس ليقولون انه المهدي ! وانه لمقتول !

وترامى الناس الى باب جعفر يسألونه وهو يقول لهم :انه لمقتول! وقالت ام الحسن بنت عبد الله بن محمد الباقر : قلت لعمي جعفر بن محمد : اني فديتك ! ما امرُ محمدٍ هذا ؟ قال: فتنة! يقتل محمدعندبيت رومي [٢٢٨] ويُقتل أخوه ـ لامه وأبيه ـ بالعراق ، وحوافر فرسه في الماء [٢٢٩]

---

(٢٢٨) لعلها رومة : أرض بالمدينة ، معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٦

(٢٢٩) مقاتل الطالبيين ص ٢٤٨

واما ابو جعفر المنصور صاحب القباء الاصفر ومعه آخر من أهله اسمه عبد الصمد فقد تبعا جعفراً حين بلغتهما مقالته وسألاه : يا أبا عبد الله ، أتقول هذا ؟ قال نعم ، أقوله ـ والله ـ وأعلمه ! فالتهبت عينا المنصور واضاءت امامه السبيل . ولم تكن كلمة جعفر بن محمد تنبيهاً لبني العباس ليخوضوا امراً لم يكونوا خائضيه ، ولكنها دفعت في قلوبهم الاطمئنان لما يريدون ان يصلوا اليه .

واختلف الناس فيما سمعوا عن الرواة عن جعفر ، فقال قوم : اخبر جعفر بن محمد بالغيب . وقال قوم : حسد جعفر بن محمدٍ محمدَ ابن عبد الله . وادعى قوم الخلاف بين بيت الحسن و بيت الحسين . وتمنى عبد الله المحض الا يصدق جعفر . وتمنى ابو جعفر المنصور ان يكون جعفر صادقاً . ومضى الزمن ليقول ان جعفر بن محمد صادق ، سواء أكان إخباراً بالغيب ام كان ظناً وحسبانا ، ولم يخرج أحد من الأمة بعدُ عن تلقيبه بالامام الصادق ـ عليه السلام ـ

النفس الزكية

ولد محمد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى سنة مائة ، من أب هو شيخ من مشايخ بني الحسن بن علي . وكان عمر بن عبد العزيز حين ذاك اميراً للمؤمنين ، فلما علم بمولده فرض له في فروض الذرية

وفي شرف العطاء ٢٣٠

وشبّ محمد هذا من أفضل اهل بيته وأكبر اهل زمانه – في زمانه – علماً بكتاب الله وحفظاً له ، وفقهاً في الدين ، وشجاعة وجوداً وبأساً، وكلّ أمر يجمل بمثله ، قد جمع في برديه كل فضل موروث ومكسوب فلما رآه الناس كذلك لم يشك احد في انه المهدي الذي تجسمت فيه الفكرة . وشاع ذلك له في العامة ، وسمي النفس الزكية وصريح قريش ، ثم بايعه رجال من بني هاشم جميعاً : من آل ابي طالب ، وآل العباس ، وسائر بني هاشم .

وقد سمي بالصريح لانه لم يجيء من أم ولد في جميع آبائه وأمهاته ، بل جاء خالصاً نقياً من قريش أبا واماً ، وسماه اهل بيته بالمهدي ، وقدروا أنه الذي جاءت فيه الروايات عندهم ، واستفاض فيه الحديث ٢٣١

ولكن علماء آل ابي طالب ولا سيما جعفر بن محمد كانوا يرون فيه أنه النفس الزكية وانه المقتول بأحجار الزيت ٢٣٢

---

(٢٣٠) مقاتل الطالبيين ص ٢٣٧

(٢٣١) غاية الاختصار ص ١٢ ، ١٤٠

(٢٣٢) مقاتل الطالبيين ص ٢٣٣ ، ٢٣٩ — معجم البلدان ج ١ ص ١٣٣ ، ج ٤ ص ٤١٣ وأحجار الزيت موضع قرب المسجد عند السوق بالمدينة قريب من الزوراء وهو موضع صلاة الاستسقاء عندهم .

ومنذ صار صريح قريش صبياً وهو يتوارى في البادية والقرى ويراسل الناس بالدعوة لنفسه ويدّعي انه المهدي . فلما قتل الوليد ابن يزيد الاموي واختلفت كلمة بني مروان كثرت دعاة بني هاشم في النواحي ، جماعة يدعون لآل علي ،وآخرون يدعون لابناء العباس ثم ما لبث بنو العباس أن ظهروا وملكوا .

بنو العباس

ومضت خلافة بني العباس سريعاً من السفاح الى المنصور . فحرص المنصور على الظفر بعبد الله وولديه لما في عنقه من البيعة لمحمد . وكان عبد الله المحض رجلاً خيّراً ، وكان مع السفاح ، وكان السفاح له مكرماً و به أنيساً ، جاوره بالعراق مدة ثم رده الى المدينة [٢٣٣] . فلما تولى المنصور ظلّ عبد الله المحض مقيما بالمدينة ظاهراً لعلو سنه ، اما ولداه فقد تواريا .

فلما جاءت سنة أربعين ومائة وجاء المنصور ليحجّ نزل بالمدينة وجاء بعبد الله فسأله عن ولديه فأنكر انه يعلم مكانهما ، فلم يرض منه المنصور هذا الانكار وطلب اليه ان يأتيه بهما ،وتقاولا ، فأغلظ كلّ منهما لصاحبه في القول .

---

(٢٣٣) الحور العين ص ٢٧١

ثم مضى المنصور الى مكة وهو يرى انه أخطأ حين أغاظ لعبد الله في قوله ، فلما كان بوادٍ في ديار هوازن يقال له « أوطاس » [٢٣٤] دعا اليه جماعة من الطالبيين و بني العباس وفيهم عبد الله المحض وأعاد عليه القول ، ثم جعل يلين له ويطلب اليه ان يكتب لولديه على الطاعة ، فلم يرَ من عبد الله جواباً ، فعاد الى مغالظته وأمر بحبسه .

وعاد المنصور من الموسم فلم ينزل المدينة ، ولكنه مال الى الرَّبَذَة [٢٣٥] ثم أرسل الى بني الحسن فأخرجهم اليه من المدينة ثم اخرج عبد الله المحض واخوته الحسن وداود وابراهيم قد شُدّوا في وثاق ، فوافوه بالربذة مكتوفين ،واوقفهم بباب خبائه، فسأل عبد الله ان يأذن له في الدخول عليه فلم يأذن له ، فلم يره حتى فارق الدنيا ، ومات في الحبس هو واخوته جميعاً [٢٣٦]

حدّث الحسن بن زيد قال : اني لواقف بين القبر والمنبر اذ رأيتُ بني الحسن يُخرج بهم من دار مروان مع ابي الازهر يراد بهم الربذة ليعذبوا هناك ، فأرسل اليّ جعفر بن محمد فقال : ما

---

(٢٣٤) اوطاس كانت فيه وقعة حنين معجم البلدان ج ١ ص ٣٧٥
(٢٣٥) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة اميال قريبة من ذات عرق وبها قبر ابي ذر الغفاري — معجم البلدان ج ٤ ص ٢٢٢
(٢٣٦) الحور العين ص ٢٧٢

وراءك ؟ قلت : رأيت بني الحسن يُخرَج بهم في محامل ، فقال : اجلس ، فجلست . قال الحسن بن زيد : فدعا جعفر غلاماً له ، ثم دعا ربه كثيراً ، ثم قال لغلامه : اذهبْ فأتِ فأخبرني اذا حُملوا ، فأتاه الغلام فقال : قد أقبل بهم . فقام جعفر فوقف وراء ستر رقيق من شعر ابيض ، فلما نظر اليهم هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته . قال الحسن بن زيد : ثم اقبل عليّ فقال : يا أبا عبد الله ، والله لا تحفظ لله حرمةٌ بعد هذا ! والله ما وفت الانصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعطوه من البيعة على العقبة !

ثم قال جعفر : حدثني ابي عن ابيه عن جده عن علي بن ابي طالب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : خذ عليهم البيعة بالعقبة ، فقال : كيف آخذ عليهم ؟ قال : « خذ عليهم يبايعون الله ورسوله على ان يطاع اللهُ فلا يُعصى ، وعلى ان تمنعوا رسول الله وذريته مما تمنعون منه انفسكم وذراريكم » قال جعفر : فوالله ما وفَوْا له حتى خرج من بين أظهرهم ، ثم لا أحد يمنع يَدَ لامس ! اللهم فاشدد وطأتك على الانصار ! ٢٣٧

---

(٢٣٧) مقاتل الطالبيين ص ٢١٩ . هذا ولم يأت في كتب السيرة أن علياً كرم الله وجهه كان الآخذ على الناس البيعة بالعقبة ، وانما جاء ان الآخذ هو العباس . ولم تذكر كتب السيرة ان النبي أخذ على الأنصار منع ذريته . فخبر مقاتل الطالبيين خبر فريد .

وجاء بنو الحسن الربذة، وسيق عبد الله واخوته وأهل بيته الى العراق ، وقد أثقلتهم القيود ، وسِيرَ بهم من طريق النجف حتى حبسوا في قصر لابن هُبَيْرة في شرقي الكوفة مما يلي بغداد [٢٣٨] . وما زال عبد الله يعذب في حبسه حتى طرح للناس مقتولا .

الصادق بالربذة

ولم يفت المنصورَ أن يرسل الى جعفر بن محمد ليروّعه ، فقد كان المنصور يعلم أن جعفرا انما يمنع محمداً من أنْ يدّعي أنه المهدي، ولا يمنعه من أن يغضب لله وليأمرَ بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : ابعث الى جعفر بن محمد من يأتينا به مُتْعَبا . ثم قال المنصور : قتلني الله ان لم أقتله ! فتغافل الربيع عنه وتناساه ، فأعاد عليه المنصور في اليوم الثاني وشدّد عليه ، فأرسل الربيع في طلبه ، فلما حضر قال له الربيع : يا أبا عبد الله ، اذكر الله تعالى ، فانه قد أرسل لك مَنْ لا يُدْفع شرّه الا بالله ، واني أتخوّف عليك ! فقال الصادق : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! ثم ان الربيع دخل به ، فلما رآه المنصور باداه بالشرّ وأغلظ له في القول ، ولكنه تركه يرجع الى المدينة ومضى هو الى العراق ، وفيه على الصادق بعض الرضا

---

(٢٣٨) مقاتل الطالبيين ص ٢٢٥

وما كاد المنصور يصل الى العراق ويستقر بها حتى بلغه ظهور محمد بن عبد الله هو واخوه ابراهيم بالمدينة ، ثم غلبا عليها وعلى مكة ، ثم امتدّ سلطانهما الى البصرة . ولما ظهر الصريح بالمدينة كتب الى ابي جعفر المنصور يتهدده ويطلب اليه أن يبايعه ويدعوه الى موادعته ويبذل له الأمان [٢٣٩] . ثم جعل يذكر له فضله عليه ويعيّره بأمهات العباسيين لانهن أمهات أولاد ، وكان المنصور نفسه من أم بربرية اسمها « سلاّمة » ولدته بالشراة [٢٤٠] ، فردّ أبو جعفر على الصريح يقول له فيما قال : وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين زين العابدين وهو لأمّ ولد ، ولَـهُوَ خيرٌ من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي الباقر ، وجدته أم ولد ولَـهُوَ خيرٌ من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد وهو خير منك [٢٤١]

●

ومع تنبؤ الصادق بمقتل محمد وأخيه ابراهيم فانه أبى أن يخذل

---

(٢٣٩) غاية الاختصار ص ١٥

(٢٤٠) المعارف ص ١٦٤ — والشراة صقع بالشام بين دمشق والمدينة ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة وكان يسكنها ولد علي بن عبد الله بن عباس في ايام بني مروان ـ معجم البلدان ج ٥ ص ٢٤٧

(٢٤١) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٥٥

بني الحسن ، فأرسل ولديه موسى وعبد الله ليكونا مع النفس الزكية حين خرج ، وشهد معه من ولد الحسين أربعة : الحسن وعيسى ولدا زيد بن علي زين العابدين ، وموسى وعبد الله ولدا جعفر الصادق ، وكان عبد الله بن جعفر الصادق في الرماة البارزين .

وكان عجب المنصور لخروج ولدي زيد بن عليّ شديدا ، كان يقول : العجب لخروج ابني زيد ، وقد قتلنا قاتلَ أبيهما كما قتله وصلبناه كما صلبه وأحرقناه كما أحرقه [٢٤٢] أما موسى وعبد الله ابنا جعفر فقد كانا عند صريح قريش لما ثار وظهر ، وجاءه جعفر فسلّم عليه ثم قال له : تحبُّ أن يُصطَلَم أهلُ بيتك ؟

قال محمد : ما أحب ذلك !

قال الصادق : فان رأيتَ أن تأذن لي ، فأنت تعرف علتي !

قال : قد أذنت لك !

فمضى جعفر ، ثم التفت محمد الى ولديه موسى وعبد الله فقال لهما: الحقا بأبيكما ، قد أذنت لكما ، فانصرفا . فالتفت جعفر وهو يمضي فقال : مالكما ؟ قالا : قد أذن لنا ، فقال جعفر : ارجعا فما كنتُ بالذي أبخل بنفسي وبكما عنه ، فرجعا ، فشهدا الثورة معه حتى قتل [٢٤٣] .

---

(٢٤٢) مقاتل الطالبين ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

(٢٤٣) مقاتل الطالبين ص ٢٥٢

ولما نشبت الحرب انحدر المنصور الى الكوفة مسرعا فوجّه جيشه الى المدينة مع عيسى بن موسى ، وجعل على مقدمته حميد بن قحطبة . ثم دخل الجيش المدينة وقتل محمد بن عبد الله المحض في رمضان سنة خمس واربعين ومائة ، في السنة التي ظهر فيها [٢٤٤]

ولم تضع الحرب اوزارها الا عن غضب شديد من المنصور على الصادق ، فانه ـ وان كان قد امتنع عن شهود الحرب مع الصريح ـ قد دفع بولديه اليه فحاربا معه ، فلما خمدت الحرب وقتل الصريح توارى الحسن بن زيد فأقام في منزل عمه جعفر الصادق ، وكان جعفر قد رباه صغيراً ونشّأه في بيته وكفالته منذ قتل أبوه زيد وعلمه جعفر فأخذ الناس عنه علما كثيرا ، فكأنه ابن ثالث له . وكان المنصور يعرف ذلك ويضمره للصادق .

ثم انه ما كاد محمد وابراهيم ولدا عبد الله يقتلان حتى ضمّ جعفر الصادق اليه اخاهما « يحيى » ليربيه ، وقد شبّ يحيى هذا يحب الصادق حبا جما ويسميه « حبيبه » فكان كلما حدث عنه قال : حدثني حبيبي جعفر بن محمد [٢٤٥] . فهذا ابن رابع له يخاصم المنصور.

---

(٢٤٤) المعارف ص ١٦٤

(٢٤٥) مقاتل الطالبين ص ٤٦٤

وقد شهد مع الصريح ثورته بعض خاصة الباقر أبي جعفر بن محمد ، فكان عبد الله بن عطاء معه حين ثار وقاتل . كل ذلك واكثرُ منه أثار المنصور على الصادق ، فلما وجّه المنصور قائده وابن أخيه عيسى بن موسى لحرب الصريح أوصاه أن يصادر مال كلٍّ من لا يلقاه من بني هاشم - ولعلها أول مرة في قانون المصادرات ايام العباسية - فكان ممن غاب عنه ولم يلقه حين دخل المدينة جعفر ابن محمد ، كان قد ترك المدينة وذهب الى الفُرْع [٢٤٦] فصادر عيسى ضيعةً له يقال لها عين أبي زياد . اما ضياع بني الحسن فقد صادرها عيسى جميعا .

حدّث سعيد الرومي مولى جعفر بن محمد قال : أرسلني جعفر ابن محمد أنظُرُ ما يصنعون ، فجئته فأخبرته أنّ محمداً قتل ، وأن عيسى قبض على عين أبي زياد ، فاطرق جعفر بن محمد طويلاً ثم قال : ما يدعو عيسى الى أن يسيء بنا ويقطع أرحامنا ؟ فوالله لا يذوق هو ولا ولده منها شيئا [٢٤٧]

---

(٢٤٦) الفرع بضم الفاء وتسكين الراء او بضمها قرية نواحي الربذة عن يسار السقيا ، بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة وقيل اربع ليال ، وهي قرية ذات نخيل وعيون ماء يقال انها اول قرية مارت اسماعيل وأمه التمر بمكة - معجم البلدان ج ٦ ص ٣٦٣

(٢٤٧) مقاتل الطالبيين ص ٢٧٣

استكبار المنصور

وحجّ المنصور من قابل سنة ست واربعين ومائة ومال الى الربذة كعادته ودعا اليه الصادق فشكا اليه الصادق قائلا : اردد عليّ عين أبي زياد آكل من سعفها ، فقال المنصور : اياي تكلم بهذا الكلام ؟ والله لازهقنّ نفسك ! فقال جعفر : لا تعجل ، قد بلغتُ ثلاثا وستين وفيها مات أبي وجدي !

قال المنصورُ : قد رأيتَ إطباقَ أهل المدينة على حربي ، وقد هممتُ أن أبعث اليهم مَن يُغَوِّرُ عيونهم ويُجمر نخلهم ! فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ، ان سليمان أعطي فشكر وان أيوب ابتلي فصبر وان يوسف قَدَر فغفر فاقتدِ بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون .

ولم يكن جعفر بن محمد يترضى المنصور أو يتملقه ، ولكنه كان يعظه ويدعوه للشكر والصبر والمغفرة ، ويريده على أن يقتدي بمن هم قدوة للناس ، ويردّه الى المكان الذي هو منه في بني هاشم الذين يعفون ويصفحون .

وكان أبو جعفر المنصور رجلا متعاليا يحبّ أن ينكسر له جميع الناس . وقد قالوا انه لما قَتَل محمد بن عبد الله المحض اعترضته امرأة معها صبيّان فقالت : يا أمير المؤمنين، أنا امرأة محمد بن عبد الله

وهذان ابناه ، أيتمهما سيفك ، وأضرعهما خوفُك ، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصعّر لهما خدك فينأى عنهما رفدك، ولتعطفك عليهما شوابكُ النسب وأواصرُ الرحم ، فالتفت المنصور الى حاجبه الربيع فقال : اردد عليهما ضياع أبيهما . ثم قال : كذا والله أحبُّ أن تكون نساء بني هاشم !

وكذلك يرضى أبو جعفر المنصور ، أما أن يلقنه الصادق درسا ويعلمه عظة فانه لا يقبل ، فما كاد الصادق يعظه بالشكر والصبر حتى قال له متعاليا : انّ أحداً لا يعلمنا الحلم ولا يعرفنا العلم ! وانما قلتُ « هممتُ » ولم ترني فعلتَ ! وانك لتعلم أنّ قدرتي عليهم تمنعني من الاساءة اليهم ! [٢٤٨] ثم حدثَ بينهم كلام وخرج الصادق . ثم قال قوم :ردّ المنصور عليه ضيعته وقال قوم : لم يردها

أسف الصادق

وحين أرسل المنصور في استحضار الصادق اليه بالربذة قال الصادق لابن عمه علي بن زين العابدين : يا علي ، بنفسي أنت ! سر معي . فسار معه علي الى الربذة ، فدخل على المنصور وقام عليّ ينتظره ، ثم خرج الصادق وعيناه تذرفان ، فقال لعلي : يا علي ، ما

---

(٢٤٨) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ ط ٢

لقيتُ من ابن الحبيثة ! ثم قال : رحم الله ابنيْ هند ! [249] انهما انْ كانا لصابرَيْن كريمين ! والله لقد مضيا ولم يصبهما دنس ! فما آسى على شيء الا على تركي اياهما لم اخرج معهما .

ولقد حدّث الصادق عن هذا اللقاء ، قال : لما رُفِعتُ الى أبي جعفر المنصور بعد قتل محمد بن عبد الله بن الحسن نهرني وكلمني بكلام غليظ ثم قال : يا جعفر ، قد علمتَ بفعل محمد بن عبد الله الذي تسمونه النفس الزكية وما نزل به !وانما أنتظر الآن أن يتحرك منكم أحد فألْحِق الصغير بالكبير . قال جعفر : فقلت : يا أمير المومنين ، حدثني محمد بن علي عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصله الله الى ثلاث وثلاثين ، وان الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون فينزلها الله الى ثلاث . قال : فقال المنصور : آللهَ سمعتَ هذا من أبيك؟ فقلت : والله لقد سمعتها منه. فرددها المنصور ثلاثاً ثم قال : انصرف [250]

الصادق بالكوفة

ولما قتل ابراهيم بن عبد الله أخو محمد بالكوفة ، أمَرَ أبو جعفر

(٢٤٩) محمد وابراهيم ابنا عبد الله المحض كانت أمها هند بنت أبي عبيدة ابن عبدالله بن زمعة بن الاسود من بني عبد العزى — غاية الاختصار ص ١٢ ، ٢٤

(٢٥٠) مقاتل الطالبيين ص ٢٥٢ — نور الابصار ص ١٤٧

المنصور أن يُسَيَّرَ اليه كل بني الحسن ، وأمر أن يُسَيَّر معهم جعفر بن محمد . قال يونس بن أبي يعقوب : حدثنا جعفر بن محمد من فيه الى اذني قال : لما قتل ابراهيم بن عبد الله بباخَمْرَا ٢٥١ حُسِرْنا عن المدينة ، ولم يترك فيها منا محتلم ، حتى قدمنا الكوفة، فمكثنا فيها شهرا نتوقع فيها القتل ، ثم خرج الينا الربيع الحاجب فقال : أين هؤلاء العلوية ؟ أدْخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوي الحجا . قال جعفر : فدخلنا اليه أنا والحسن بن زيد ، فلما صرتُ بين يديه قال لي : أنت الذي تعلم الغيب ؟

قلت : لا يعلم الغيب الا الله !

قال : أنت الذى يجبى اليك هذا الخراج ؟

قلت : اليك يجبى ـ يا أمير المؤمنين ـ الخراج

قال : أندرون لم دعوتكم ؟

قلت : لا

قال : أردتُ أن أهدم رباعكم ، وأروع قلوبكم ، وأغوّر قليبكم ، وأعقر نخلكم وأترككم بالسراة ٢٥٢ ، لا يقربكم أحد من

(٢٥١) باخمرا موضع بين الكوفة وواسط وهو الى الكوفة أقربُ . قالوا بينها وبين الكوفة سبعة عشر فرسخا. وبها الوقعة بين أبي جعفر وابراهيم فقتل ابراهيم هناك ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨

(٢٥٢) السراة جبل مشرف على عرفات ينقاد الى صنعاء ـ معجم البلدان ج ٥ ص ٥٩

أهل الحجاز وأهل العراق ، فانكم مفسدة

قال جعفر : فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان سليمان أعطي فشكر وان أيوب ابتلي فصبر ، وان يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك النسل . قال جعفر : فتبسم وقال : أعِد عليّ ، ثم قال : مثلك فليكن زعيمَ القوم ، وقد عفوت عنكم ، ووهبت لكم خراج البصرة .

وقالوا : وقال جعفر للصادق حين طرب لقوله: أجل يا أبا عبدالله ارتفع اليّ ، ثم جاء بطيب الغالية فجعل يصبّه على لحيته حتى قطرَت طيبا ، ثم قال له : في حفظ الله وكلاءته ! وخرج الصادق وفي اثره الربيع الحاجب بجوائز حسنة وكسوة سنيّة [٢٥٣]

ولكن المنصور كان كلما ذكر الصادق تمضّغ لحمه وأقسم ليقتلنه ، حتى اذا لقيه وسبق المنصور يقذفه بالغضب، وتناثر الغضب تحت قدمي الامام ، فرغ المنصور من توعده ، ومضى الامام يتلطف له ويدلّه على المكان الذي يجب أن يضع نفسه فيه ، وما يزال به حتى يخمد نَفَسه ويميت باطله .

وفي سنة سبع وأربعين ومائة عزم المنصور أن يسيّر جعفراً معه الى العراق وهو راجع من الموسم فقالوا ان ذلك لم يتم له [٢٥٤] ،

(٢٥٣) نور الابصار ص ١٤٦ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٧ ـ مقاتل الطالبين ص ٣٥١ ـ نزهة الجليس ج ٢ ص ٣٦

(٢٥٤) المنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧

وقالوا ان الصادق استعفاه فلم يعفه ، فاستأذن في المقـام بعده اياما ليصلح أمورا مختلة فأبى عليه وحمله معه [255]

وهكذا اجتمع الرجلان ثم افترقا بعد ان بان موضع كل منهما: رجلٌ يسرع اليه الغضب ثم يتهافت حين يكسر صولجانه ، ورجل يبقى كما هو عزيزا متماسكا كريم المقـدم والذهاب ! فأي الرجلين - يا تُرى - كان خليقاً بأن يكون أمير المؤمنين ؟

رجل سياسيّ

ويقول الشهرستاني : ان جعفر بن محمد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل الى العراق وأقام بها مدة ، ما تعرض للامامة قط ولا نازع أحدا في الخلافـة ، ومن غَرِق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلّى الى ذروة الحقيقة لم يخَفْ من حط [256] . وهذا كلام قد القي القاه بعثه ظاهر جعفر ، ولكن الحقيقة تبين خطأه وتثبت بطلانه .

ويقول كثير من النـاس قولة الشهرستاني ، يقولون ان جعفر ابن محمد شغل نفسه بالعبادة عن الرياسة ، يريدون بذلك انـه كان بعيدا عن السياسة ، ارتضى لنفسه حياة التعبد والعلم ، وترك المطامع

---

(٢٥٥) نزهة الجليس ج ٢ ص ٣٦
(٢٥٦) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥

بل دفع أهله عنها ، وكثير من هؤلاء الذين كتبوا التاريخ جاوزوا حقائق من سيرة جعفر كانت خليقـة ألا يتجاوزوها ، ومنهم من لم يكتب فيها شيئا يذكر ، وربما لم يعرض لجعفر بعض المؤرخين الا بذكر وفاته والسنة التي مات فيها .

ذلك لأن المؤرخين كانت تجري أقلامهم وراء الخلفاء تتحرك بحركتهم وتسكن بسكونهم ، ولعل أهون شيء في الدولة في بعض الأحوال يكون ذلك الخليفة الذي تجري وراءه الأقلام ، اما غيره فيكون أعظم شأنا وأشد بأسا . ولعـل رجلا يبني في هوادة ويعمل في تأمل وعلم يكون أحق بالانتباه اليه . وقـد ثبت أن ذلك الذي كانوا يقولون عنه انه شغل نفسه بالعبادة عن الرياسة قـد أرسى مبادىء مذهب وفصّله تفاصيل، ثم تبعه نصفُ المسلمين في الارض الى اليوم ، ولم يزل من يؤرخ له يقول : انه ما تعرض للامامـة ولا نازع أحدا في الخلافة !

وليس من خطأ أبعد من أن يُظن أن جعفرا لم يشتغل بالسياسة، أو لم يكن له أثر في أمور الدولة ! اذ أي شيء كان يفعـله جعفر في سياسة دولة اكثر من العمل في الدفع والمنع في الثورات التي شبّت ؟ وأي دليل على عمله في السياسة اكثر من مصادرة ضيعته التي صادرها

قائد أبي جعفر المنصور ؟ واي شيء كان يفعله جعفر في سياسة دولة أعظم مـن تأصيل مذهب ديني ثم نشره بهمة لا تخمد وذكاء لا ينطفىء ؟ وأي نباهة لرجل سياسي اكثر من نباهة رجل يقصده السلطان كل آن بالتهديد والأذى أو الملق والهـدايا وهو ماض في نشر ما هيىء له من العلم والدين وبث سلطانهما في النفوس ؟

انه لمن اروع الخطأ ان يُظَـن ان جعفر بن محمد كان معلما او فقيها وحسب ! فيظن لذلك انه كان بعيدا عن السياسة ، وقد كان الظنُ خطأ رائعا لأن تلاميذ جعفر بن محمد كانوا يفدون عليـه من الكوفة والبصرة والمدينة ومكة والحيرة وهمـذان وقمّ وعسقلان ثم يحملون عنه فقه اهل البيت ، ويجاوزون به المدينة الى بلادهم واقطار الأرض الأخرى فيدوّي صوت جعفر بن محمد على لهوات اصحابه وتلاميذه في صحون المساجد وابهاء الجوامع والمجامع . واذا صحّ ما روي من ان جعفر كان يُجْبَى اليه بعض خراج الكوفـة وبعض خراج فارس فماذا وراء جباية الخراج من شركة سياسية في امور الأرض والناس ؟

فاذا لم يكن الا الاشتراك في الثورات ليدل به المرء على انـه يغمس يده في السياسة فان جعفر بن محمد أبدي رأيه فيمن يلي الامر

عندما شبت ثورة المدينة وثار محمد بن عبد الله المحض ، ثم أشرك جعفر ولديه موسى وعبد الله ليعاونا ابن عمهما في ثورته على المنصور. وإن كان جعفر قد رأى ابن عمه محمدا مهزوما قتيلا فقد مدّه وأعانه بأعز ما لديه : بولديه !

المجتمع الفاضل

•

عصبية الملك

ان جعفر بن محمد وان كان قد عاش بادي العزلة والمسالمة وكان يقول: السعيد من وجد نفسه في خلوة يشتغل بها عن الناس [٢٥٧] فانه مع قوله هذا لم يغض بصره عن معرفة شئون الدولة ولم يدع النظر فيما يجلب لها القوة والضعف. وكان من رأيه ان تقوم الدولة على العصبية ببني العم، وقال في ذلك: « ما تثبت الدنيا الا على بني العم، المتعاطفين بالبرّ، المتعلقين بالادب، المجتمعين على التناصر الحاضرين بالاتفاق، الغائبين بلا اغتياب. بمثل هؤلاء تطول اعمار الدول وتدعم الممالك، وما ذل قوم بعد العز حتى ضعفوا، وما ضعفوا حتى تفرقوا، وما تفرقوا حتى تباغضوا، وما تباغضوا حتى تحاسدوا، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض [٢٥٨]

---

(٢٥٧) الفصول المهمة ص ٢٠٧

(٢٥٨) الحكمة الخالدة ص ١٤٧

أفيظن أحدٌ أن ذلك كان غير نقد مرير من جعفر للدولة العباسية التي قتلت بني عمومتها ؟ وهل كان ذلك الا انذارا للعباسية وتحذيرا لها من الزوال ؟ ولا يقولنّ أحدٌ انها كانت عظاتٍ من جعفر ووصايا ، فان كل مبدأ لا يكون الا كلاما وعظات ووصايا حتى يصير تطبيقه فيكون دولة وحكما .

وقد قال جعفر ذلك وهو يرى الدولة أمامه مهددة بالانهيار ، ففي نفس الطريق الذي سارت فيه الأموية جاءت تخطو العباسية ، ولم يتبدل الا الاسم والبلد الذي يطل منه رأس الحاكم : بغداد بعد دمشق .

ولم يكن غريبا على جعفر ان يرى الدولة تزول قبل ان تزول بقرون ، فان المقدمات أمامه ، والرجل الذي كان يقدر مصائر الاشياء في دقة وصدق حتى عدّوه كأنه يعلم الغيب لا تذهب عنه النتائج اذا افضت اليها المقدمات . فدعا في عصره الى دولة يقوم عليها بنو العمّ الأقربون والبعداء ، تعطفهم آداب وتربطهم حقوق . ولم تكن هذه نصائح وعظات يُعْرَبُ فيها الفاعل في العبارة والمفعول ، وانما كانت رأيا ، ولكن كان بين صوته وبين الآذان في القصور أسوار وسدود !

فمن ذا الذي يقول ان هذه ليست سطورا في كتابة التاريخ ؟

لمن تاريخ الأمة لا يكتبه كلـه ملوكها ورؤساؤها وقوادها وجنودها، وانما يكتبه معهم كل انسان كان حيّا معهم . وكلما علت قيمتـه في الدولة كانت سطوره ابلغ في تاريخها بنسبة ما أثر . وجعفر بن محمد كان في تاريخ هذه الامة قلبا كاتبا ، ورأيا ثاقبا ، وعالما خطير العلم ، وعاملا له ابعد الاثر في حالها وصيرورتها .

وكثـير من الحكام لا يعبّرون بحياتهم واعمـالهم الا عن ذواتهم ، اما القليل منهم فيعبرون عن حياة الامة التي يحكمونها ، وحياة الصادق ـ ولو لم يكن حاكما ـ كانت تعبّر عن حياة الأمة ، وما زالت تعبّر حتى اليوم ـ وان جهل كثير من الناس ـ

واذا لم يعبّر الحكام الا عن حياتهم هم انفسهم كان ذلك من انّ الحاكم المستبدّ يظن الحياة كلها حقوقا له ، وحين يكون ظنه كذلك تكون حياة الزهاد الأحياء من حوله كلها واجبات ثقيـلة عليهم ، وتبتعد المسافـة بين الاثنين ، وكذلك كان فَرْقُ ما بين جعفر بن محمد وكثير من حكام زمانه : كل الحياة لهم حقوق ، وكل الحياة على الصادق واجبات، ولكنهم ـ وكل شيء حق لهم ـ عاشوا في قلق واضطراب ، وعاش هو ـ حين اثقل على نفسه الفروض ـ مطمئنا مجدودا سعيدا .

العزلة والاختلاط

ولم تكن العزلة التي ظُنَّ جعفر يدعو اليها الا انقطاعا الى الله، وافراداً له بالعبودية ، حتى لا يذل الناسُ لغيره ، وليست العزلة في نظره بالعزلة الجسدية التي ينقطع فيها الناس عن الناس ، وانما كان يراها عملاً من أعمال القلب لا عمل الظاهر ، وقد يحضر قلبُ المرء وهو بين الناس وفي غمرة ضجيجهم ، ولا يحضر وهو في عزلة عنهم والليل مخيم عليه !

ورأى جعفر من معنى الانقطاع الى الله ان يرد اليه المرء كل ما يصيبه ، و يرضى به دون أن يفزع الى احد غير الله او يسخط على ما اصابه ، وقد سئل جعفر عن معنى الانقطاع الى الله فقال « انْ تعلم ان ما حكم عليك به من شيء فانه في ذلك محسنٌ اليك ، وهو بك أرأف وعليك أشفق » فاذا تأصل هذا الخلق في الناس نزل المتكبر عن كبره لأنه لا أحد يقصده ، وارتفع الذليل عن ذله لأنه لا يرجو غير الله . وقد يذهب الظن بالناس الى أن تحصُّنَهم بالرضا يبيتهم على المذلة ويعوّدهم الهوان ، ولكن السلطان يُسْقَط في يده حين لا يجد على بابه رقابا خاضعة للطامعين !

وهكذا اراد جعفر ان يثور بالناس، وكانت المطامع قد عضتهم فشرهوا الى الدنيا ، ولم يرض بما قسم له غني ولا فقير ، فانبرى

الصادق يحارب ذلك كله في النفوس بما يحدّث عن رسول الله وعن عليّ وعن نفسه ، وانبعث يدعو الى الطمأنينة والرضا فان الطمع في الدنيا ليس وراءه الا المذلة والهوان .

وربما كانت النظرة الى الحياة الدنيا تتغير لو ان العدالة والايمان كانا من خلق الحاكم فيها دائما ، ولكنها تصبح خسيسة في النفوس مهينة في العيون حين يفرض الظلمة انفسهم حكاما معتمدين على اخسّ قوى الدنيا من المال والسلاح، وهذه الظلمة القاتمة التي نراها مخيّمة على حياة الزهاد انما هي ظلمة موهومة تراها نفوسنا المظلمة ، ولكنها في داخل انفس الزهاد نور ساطع ، وهم اشعلوه لئلا يخوضوا متاهات الظلم وراء الحكام الظالمين .

ومن وراء هذا الفهم نهض جعفر يطمئن الفقراء والمساكين ويذكرهم بقول رسول الله : « يا معاشر المساكين ، طيبوا نفسا وأعطوا الله الرضا من قلوبكم يثبكم الله عز وجل على فقركم فان لم تفعلوا فلا ثواب لكم » [259] ثم يذكرهم بما كان يقوله عليّ على منبره : لا يجد أحدكم طعم الايمان حتى يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه .

فاذا اعتزل الناسُ الناسَ بعض العزلة كان عليهم ان يعتزلوا

---

(٢٥٩) الكشكول للبهائي ص ٣١٦

الولاة والحكام الظالمين اكثر العزلة أو كلها ، وليست السعادة في مجاورة السلطان والارتماء عليه . وكثيرا ما دعا جعفر بن محمد الى ذلك وعمل له وجعل من نفسه قدوة فيه ، حتى ان تلميذه سفيان الثوري جاءه مرة فلما دخل عليه قال له : يا سفيان ، انك رجل يطلبك السلطان ، وأنا أتقي السلطان ، قم فاخرج ـ غير مطرود ـ فقال سفيان : حدثني حتى أسمع وأقوم ، فحدثه جعفر ثم قام [٢٦٠]

واذا كانت مجاورة السلطان الجائر حراما على الناس كانت على الفقهاء أحرم ، والفقهاء في رأي جعفر هم أئمة الناس ، على شرط ألا يكون من شأنهم التزيّد في طلب الدنيا ، فاذا حدث ان طلبوا الدنيا وزادوا على قدر الحاجة في حفظ الصحة على الجسد كان ذلك منهم افراطا واسرافا . وقد قال جعفر : الفقهاء امناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين . ولم ينكر جعفر مع ذلك حقّ الامير الخيّر العادل من وجوب طاعته فقال : انه لا يستغني أهل بلد عن ثلاثة يُفزَع اليهم في أمر دنياهم وآخرتهم : فقيه عالم ورع ، وامير خيّر مطاع ، وطبيب بصير ثقة ، فان عدموا ذلك كانوا همجا [٢٦١]

(٢٦٠) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥

(٢٦١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢ ـ أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٧

ولم تكن الأخلاق عند جعفر نظما جامدة محتومـة ، ولكنها كانت في وفاق مع العقل والتفكير والتحوّل ، وما لم يقبل من هذه النظم تحولا ـ لان الزمان كلّه مهما تغيّر يرتضيه ـ فتلك شهادة من الخلق نفسه بأنه صالح للبقاء . ولم تتخذ الأخلاق عنده قوالب تنصبّ فيها ثم لا يتبدل لها شكل ولون .

فالصبر والامتناع لم تكن عنده مؤدية الى الخضوع والمذلة،فاذا أدّت اليهما وجب خلعها ، ولكن لما كان الصبر دائما مقرونا بالعمل في مشقة وجلد للخروج من مآزق الضيق فقد بقي الصبر في مفهوم جعفر خلقا حيّاً يرفض أن يزول .

ولم يكن الصبر في الاسلام رضوخا للمذلة قطّ ، وان ذلك لخليق بأن يسمّى ذلّة لا صبرا ، ومن الدّس الخطير للاسلام ان يقال ان هذا النوع من الذلة هو الذي سماه الاسلام صبرا .

وقد كان الصبر في مفهوم الامام الباقر أبي جعفر بن محمد ـ حتى في الأمور الخارجة عن الطاقـة والسعي ـ رضا وطمأنينـة ، وليس مضضا وكرها ومذلة ، وقد قالوا ان بعض اهل الباقر اشتكى مرضا شديدا فجزع عليه الباقر ثم أخبر بموته فسرّي عنه ، فقيـل له في ذلك ، فقال : ندعوا الله فيما نحب ، فاذا وقع ما نكره لم نخالف الله

فيما أحب [٢٦٢]

ويرى جعفر ان تتأصل الأخلاق الفاضلة في الناس ويُستَهر عليها حتى تصبح كأنها موروثة لا مكسوبة ، فان الخلق الطيب المكسوب ما يلبث ان ينزلق عن مكانه بدفع من الخلق السيىء . وجعفر يقول في ذلك : من تخلق بالخلق الجميل وله خلق سوء أصيل فتَخَلقه لا محالة زائل ، وهو الى خلقه الأول آيل ، كطلاء الذهب على النحاس ينسحق وتظهر صفرته للناس [٢٦٣]

وجعفر بن محمد بقوله هذا لا يقرر ان الكسب لا نفع له، ولكنه يحذّر ان تظهر للناس مظاهر هي كطلاء الذهب على النحاس ، امّا ان يمزج الذهب بالنحاس ، وأما أن يكون ذهباً كله جوهراً وطلاء فلم يضرب به الصادق مثلا للخلق الذي ينزلق ثم يزول .

الفتوّة

ولفظ الفتوّة وان لم يجيء في الكتاب والسنة قد أطلق على مجموعة من الفضائل أخصها المروءة والشجاعة ، تُفرِدُ المتصف بها وتميّزه ، وكان اقدم من تكلم فيها جعفر الصادق [٢٦٤] . وقد دعا الناس اليها لأنها كانت لقبا لجده علي بن أبي طالب ولأهل بيته ،

---

(٢٦٢) عيون الاخبار ج ٣ ص ٥٧
(٢٦٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٤
(٢٦٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٦٤

وهي وان كانت أمراً فرديا لا وجود له حين ذلك في جماعة منظمة[٢٦٥] الا أن اجتماع الناس عليها يجمعهم في نظام واحـد ويقرب بينهم وان كانوا افرادا .

ويُظلم جعفر بن محمد لو اتـّهم بأنـه بذلك يكتـّل الجماعات في قلب الأمة في ظل نظام خاص ، ولكنه انما كان يدعو الامة كلها الى ان يؤثـّر كل فرد فيها غيره ، وأن تسود بين الناس مكارم الاخلاق.

وقد تكلم في الفتوة بعده من الأئمة الفضيل ثم الامام احمد ثم سهل والجنيد ، ولهم في التعبير عنها الفاظ مختلفة ، والمآل واحد[٢٦٦] .

•

وكذلك لم يؤثر جعفر نفسه عن أحدٍ يستحق الاجلال مثله ، ولم يرفع نفسه عن تلاميذه ، بل عرف لهم فضلهم ، ودفع الراغبين في علمه اليهم ليأخذوا عنهم . وقد حدّث عُنوان البصري ـ وكان شيخا قد اتى عليه أربع وتسعون ـ قال : كنت أختلف الى مالك ابن أنس سنين ، فلما قدم جعفر بن محمد الصادق كنت اختلف اليه ، وأحببت ان آخذ عنه كما أخذت عن مالك ، فقال يوما : اني رجل مطلوب ، ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل واطراف

---

(٢٦٥) اللامتية ص ٢٤

(٢٦٦) انظر مادة « فتى » في القاموس

النهار ، فلا تشغلني عن وردي ، وخذ عن مالك ، واختلفْ اليـه كما كنت تختلف . قال عنوان : فاغتممت من ذلك وخرجت من عنده وقلت في نفسي : لو تفرّس لي خيرا لما زجرني عن الاختلاف اليه والأخذ عنـه ! فدخلتُ مسجد رسول الله وسلمت عليـه ثم رجعت من الغد الى الروضة وصليت فيها ركعتين ، وقلت : أسألك يا رب أن تعطف عليّ قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به الى الصراط المستقيم ، ورجعت الى داري مغتمّا ، ولم أختلف الى مالك بن أنس لما أُشرِبَ قلبي من حب جعفر ، فما خرجت من داري الا الى الصلاة المكتوبة ، حتى عيل صبري .

قال عنوان : فلما ضـاق صدري تردّيت وقصدت جعفرا ، فلما حضرت داره ، وكنت عنده ، وسلمت ، أجلسني ، فجلست ، فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال : أبو من أنت ؟ قلت : أبو عبدالله ، قال : ثبّت الله كنيتك ووفقك يا أبا عبد الله ، ما مسألتك ؟ قال عنوان : فقلت في نفسي : لو لم يكن لي من زيارته والتسليم عليه غير هذا الدعاء لكان كثيرا ، ثم رفع رأسه فقال : ما مسألتك ؟ قلت : سألت الله ان يعطف عليّ قلبك ويرزقني من علمك وارجو ان يكون الله قد أجابني ، فقال : يا عبد الله ، ليس العلم بالتعلم ، وانما هو نور يقع على قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديـه ، فان

أردت العلم فاطلب اولا في نفسك حقيقة العبودية ٢٦٧ واطلب العلم باستعماله واستفهم الله يفهمك .

قال عنوان : فقلت : أيها الشريف ، فقال جعفر : قل : يا أبا عبد الله ، قلت يا أبا عبد الله ، ما حقيقة العبودية ؟ قال : ثلاثة اشياء : ألاّ يرى العبد لنفسه ـ فيما خوّله الله ـ ملكا ، ولا يدبّر لنفسه تدبيرا ، وان يشتغل بما امره الله تعالى وينتهي عما نهى . قال عنوان : فقلت : يا ابا عبد الله ، أوصني ، فقال :

اوصيك بتسعة اشياء ، فانها وصيتي لمن يريد الطريق الى الله تعالى ، والله أسأل ان يوفقك :

ثلاثة في رياضة النفس ، وثلاثة في الحِلْم ، وثلاثة في العلم : فأما اللواتي في الرياضة فاياك ان تأكل ما لا تشتهيه فانه يورث الحماقة والبله ، ولا تأكل الا عند الجوع ، واذا أكلت فكل حلالا ، ثم ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ملأ آدميّ وعاء شرا من بطنه فان كان ولا بدّ فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه » .

فأما اللواتي هنّ في الحلم فمن قال لك ان قلت واحدة سمعت

---

(٢٦٧) انظر صلة ابن العربي بفكرة الامام الصادق هذه ـ المنقول من كتاب الحمامة — مجلة السنابل السنة الثامنة ج ٣ س ١٩٥٣

عشراً فقل له ان قلت عشرا لم تسمع واحدة . ومن شتمك فقل ان كنتَ صادقـا فأسأل الله ان يغفر لي وان كنتَ كاذبا فأسأل الله ان يغفر لك ، ومن توعدك فعده بالنصيحة والدعاء .

وأما اللواتي في العلم فاسأل العـلماء ما جهلت واياك ان تسألهم تعنّتا وتجربة ، واياك أن تعمل برأيك ، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد اليـه سبيلا ، واهرب من الـفُتْـيَا هربك من الاسد، ولا تجعل رقبتك في الناس جسرا . قم عني يا ابا عبد الله فقد نصحت لك ، ولا تفسد عليّ وردي فاني امرؤ ضنين بنفسي ، والسـلام على من اتبع الهدى [٢٦٨]

•

وليس الغضب والرضا ـ وكل منهما في موضعه ـ الا صفات الفتى المؤمن ، والحلال بيّن والحرام بيّن ، وليس لمؤمن ان يغضب حتى يخرجه الغضب عن الحق ، وليس له ان يرضى حتى يدخله الرضا في الباطل ، وانما هناك حاجر يجب الا يعدوه، وقد قال جعفر في ذلك: المؤمن اذا غضب لم يخرجه غضب عن حق ، واذا رضي لم يدخله رضاه في باطل [٢٦٩] . وهذه دعوة اكثر ما تكون للحكام دون

---

(٢٦٨) الكشكول للبهائي ص ٢٣٦

(٢٦٩) نور الابصار ص ١٤٨ ـ الفصول المهمة ص ٢١٠

المحكومين .

مبدأ الخطايا

ومبدأ المسالمة ينبثق من العلم المحيط بهذا الانسان الكائن ثم اليقين بأنه عرضة للخطأ ، وابن آدم يذنب لان الخطأ مركب غريزته ، وانما ينجو من ذلك بالعقل والعزم ، فاذا لم يُعمِل المرء عقله ويشحذ عزمه كان آثما ومضى هالكا . ويرى جعفر ان يلجأ المذنب للاستغفار مسرعا فانما هي خطايا تطوّق اعناق الرجال قبل ان يخلقوا ، والهلاك كل الهلاك في الاصرار عليها ، وقال : تأخير التوبة اغترار ، وطول التسويف حيرة ، والاعتداء على الله هلكة ، والاصرار على الذنب من مكر الله ، ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون [270]

ومن رأي جعفر في قوله تعالى « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » انّ كل ذنب عمله العبد وان كان عالما فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه ، واستدل بقوله تعالى فيما حكاه يوسف لاخوته « هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون » فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله [271] .

(٢٧٠) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢ ــ الفصول المهمة ص ٢١٠

(٢٧١) الكشكول للبهائي عن الطبرسي ص ٣٩ وهو مروي ايضا عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وقتادة

وقد أوجب جعفر بهذا الرأي ان ينازع المرء نفسه حتى ينتزعها من الهوى ، وفي الانسان القوة التي تحطم الشر في نفسه كما يحطمه بيده من حوله ، وهي قوة العقل ، التي هي سلاح لقهر المعصية واذلال الشهوات .

ولم يرد جعفر ان يغفر للناس ان يذنبوا ويرتكبوا الآثام بحجة انهم يخطئون غريزةً ، ولكنه كان دائب الدعوة للبعد عن الآثام ، وقد قال : من اراد عزا بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل المعصية الى عز الطاعة [٢٧٢] . وهذه دعوة صارخة من الصادق لرفض الاستعباد كله : استعباد العباد .

الناس وأزمانهم

وقد وهب جعفر بن محمد ذكاء بارعا ، ولم يدع التجارب تمر به دون ان يعرف منها جديدا . وكان يرى الناس تسوء اخلاقهم ويجشعون حين تغلو الاسعار ويتركون لهواهم ، ثم يرى الناس قد صفت اخلاقهم ومات جشعهم حين ترخص الأسعار ، وقد قيل : ما بال الناس في الغلاء يزداد جوعهم بخلاف العادة في الرخص ؟ فقال جعفر : لأنهم خلقوا من الارض وهم بنوها ، فاذا اقحطت

---

(٢٧٢) اسعاف الراغبين ص ٢٢٨

أقحطوا واذا أخصبت أخصبوا [273] .

ولم يكن هذا من جعفر تحليلا للواقع ووقوفا عند التحليل بغير أن يفرض الدواء ، ولكنه جعله عظة ليترفع الناس في أزمنتهم جميعها عن أن يكونوا كالأرض – التي هم بنوها – قحطا وخصبا ، من أي طريق جاء وعلى أي صورة ارتسم . ولم يفت جعفرا أن يعبّر بتعبيره القديم عن نظرية اليوم ، تلك التي تقول : ان الانتاج هو أساس الاقتصاد وحياته ، ولا تخصب الأرض الا ويكثر الانتاج ، كما أنها لا تقحط الا وهو يقل ويذوب .

ولم يفرض جعفر عقوبة للمغالين بالاسعار لأنه لم يكن على رأس الدولة ، ويكفيه أنه رفض ربحا كبيرا جاءه به وكلاؤه ، وجده يزيد زيادة فاحشة فردّه عليهم ، ولم يعالج أمر الأسعار في عنف ، ولكنه عالجه من طريق تهذيب الأخلاق ليكون أنجح وأدوم .

وان قيمة العمل في السفر بالتجارة من الحجاز الى العراق أو الشام لم تكن في نظره كافية لأن يعود وكلاؤه بالربح الذي كان غبنا للمشترين ، ولم يَرَ من حق وكلائه الا ينظروا الى منفعة الشاري فمن حقه ألا يُغبن ، وليست الحاجة الملحة الى السلع بموجبة عنده أن تقوم سببا للغبن ، ولا أن تكون السلعة من يد رجل يقدسه

---

(٢٧٣) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٤

الناس سببا لغبنهم ، ولذلك كله رفض جعفر أن يأخذ من وكلائه ما ربحوه ، وهو حقه وحده ، وردّه عليهم ليحملوا أثمه ويبوءوا بذنبه ، واذا كان المشترون قد غالوا في الثمن ـ لأن البيع كان في سلعة جعفر بن محمد ـ فهو عنده أغبن الغبن وأشين الشين .

•

وقد قطع جعفر بأنه لا صلاح للناس ما لم يستحيوا من العيب أو يتوبوا من الذنب ، فاذا لم يكن هذا الانتهاء صادرا عن القلب فانه لا يلبث أن يعود ، وقد قال جعفر : من لم يستح من العيب ويرعوِ عند المشيب ويخش الله بظهر الغيب فلا خير فيه .

وانها ليست حكما وعظات ، ولكنه خلق أمة ونظام دولة، كان يشير به الامام ، فكما تجب العدالة من الحاكم تجب الطاعة والانقياد من المحكوم .

وحدة الامة

وعادة الناس في كل زمان ومكان ان يثيروا الخلاف وينفذوا اليه من ثقوب الابر ، وليس يترك الناس خلق الأثرة في الرؤساء حتى يثيروه فتسيطر عليه اهواؤهم وتضرى غرائزهم . ولم يترك الناس الامامَ الصادق دون أن يحثوه عليه ويدفعوه اليه ، ولكنه كان حصنا ركينا لم يمكّن لهم لينفذوا ، ولم يرض أن يختلفوا ، وقد

سئل عما شجر بين أصحاب رسول الله في الزمان الأول فقال: أقول ما قال الله : « علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ».

ولم يكن الخلاف وحده هو المحرّم عند جعفر ، ولكنه حرّم كلّ سبب له ، وكان يرى النقد أهم اسبابه ، ويعده عداوة [٢٧٤] ، ولقد تنصل من ابداء رأيه فيما حدث بين الصحابة لئلا يجرّ الناس الى الخلاف كما تنصل من قبله ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ثم تنصل زين العابدين والباقر .

ويذهب جعفر بن محمد الى أن تتآلف طوائف الأمة وتتراحم : المسلمون وأهل ذمتهم ، ويدخل عَبَدَةَ النار وأمثالهم في أهل الذمة من أهل الكتاب ، وقد استند في ذلك الى ما رواه عبد الرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب ، فقد رُوِيَ عنه عن أبيه قال : ذُكِرَ لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قوم يعبدون النار ليسوا يهودا ولا نصارى ولا اهل كتاب ، فقال عمر : ما ادري ما اصنع بهؤلاء! فقام عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ فقال : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب » [٢٧٥]

---

(٢٧٤) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٥

(٢٧٥) الخراج لابي يوسف ص ١٣٠ ـ تيسير الوصول ج ١ ص ٢٣٥

ولم يَرْضَ جعفر أن يتفاضل الأفراد في الامة الاسلامية الواحدة بأجناسهم وأصولهم، اذ الاسلام يمحو هذا التفاضل، ولا فضل لعربي على عجميّ الا بالتقوى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع. ولقد كان يلزم جعفرا رجلٌ من أهل السواد، ويقعد عنده طويلا، فتفقده يوما فلم يجده فسأل عنه الناسَ، فقال له رجل منهم: انه نبطيّ! - يريد بذلك ان يضع منه ويباعد بين جعفر وبينه - فقال جعفر - يردّ عليه -: اصل الرجل عقله، وحَسَبه دينه، وكرمه تقواه، والناس في آدم مستوون[276]

صلاح المجتمع

ونظر جعفر الى هذا الانسان، هذا الكائن الاجتماعي، فرآه لا يستطيع العزلة والانفراد وحده، فأخذ ينظم علاقاته بعضها ببعض: علاقاته بأهله وبجيرانه وبقومه، ونظر في كل النواحي وسلك كل الطرق: ثقافة وعلما وخلقا واقتصادا واجتماعا.

ولما كانت الأسرة وحدة المجتمع فقد أوجب جعفر على الآباء اختيار الامهات واختيار الاسماء والمبالغة في التأديب، وكان على الأبناء الطاعة والشكر، وعلى الاخوة التناصف والتراحم ونفي الحسد،

---

(٢٧٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٦ - الفصول المهمة ص ٢٠٦ - مطالب السؤول ص ٥٨

فاذا لم تجتمع الأسرة على ذلك تعرضت لدخول الوهن وشماتة الاعداء [٢٧٧]

ورأى جعفر ان يتوادّ الناس وان يهينوا المال بينهم فلايترابوا به لئلا يتمانعوا المعروف بينهم ، ورأى ان يسرع المسئول في معونة السائل مخافة ألا يصبح للعطاء موقع اذا أبطأ ، ومخافة ان يستغني السائل عما طلب . وجعفر يقول في ذلك : ان الحاجة تعرض للرجل قِبَلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها أو تأتيه وقد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع [٢٧٨] . وكان لا يرى منع الحاجة عن العدوّ فلعلها تجعل منه صديقا ، فكان يقول : اني لأسارع الى حاجة عدوّي خوفا أن أردّه فيستغني عني [٢٧٩]

واليد الدائمة التي لا تقطع احسانها كانت عند الصادق أحبّ اليه من اليد التي تعطي ثم تمنع ، وهو يقول في ذلك : ما من شيء أحب اليّ من رجل سلَفَتْ مني اليه يد أتبعته أختها وأحسنت ربّها له ، لأني رأيت منع الاواخر يقطع لسان شكر الأوائل [٢٨٠] .

وكذلك رأى جعفر أن المعروف لا يتم الا بثلاثة أمور :

(٢٧٧) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٨
(٢٧٨) عيون الاخبار ج ٣ ص ١٧٥
(٢٧٩) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٢٠٣
(٢٨٠) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ ـ مجمع البيان ج ٢ ص ٣٧٧

أحدها أن يعجّل بـه حتى لا تفوت الحاجة اليـه ، وأن يُصَغّر ويستهان به لئلا يكبر ، وأن يُستَر حتى لا يفضح الطالب ويضيع ثوابُ المعطي [281]

وان النار والعداوة والفقر والمرض أربعة أشياء القليل منها كثير عند جعفر [282] . فكما تجب مكافحة النار مهما صغرت لئلا تكبر فتلتهم ما نالته ألسنتها وجبت مكافحة العداوة وخلْع أصولها مهما كانت صغيرة البذرة لئلا تخرج منها جذوع ثم فروع وأغصان ، اما الفقر والمرض فيجب اجتثاث اصولهـما ، وعلى من تكفّل بأمور الناس أن يجتث هذه الأصول ، وفي الاسلام احكام كافية لتحقيق الشفاء من كل هذا الداء .

واذا لم تشهر الأمم الحرب على عيوبها ونقائصها هلكت : والأمراء يهلكون بالجور ، والعرب بالعصبيـة ، والدهاقين بالكبر ، والتجار بالخيانة ، وجمهور الناس بالجهل ، والفقهاء بالحسد [283]

الرّبا

وليس الربا بين الناس عاملا على محاربـة الفقر ، ولا دافعـا

---

(٢٨١) الفصول المهمة ص ٢٠٦ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥
(٢٨٢) نور الابصار ص ١٤٧
(٢٨٣) أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٤

لرواج التجارة ونمو الأموال، وانما هو ماحق لها، ماحق للأخلاق، مُرْبٍ للفقر والخراب، وليس ذلك رأي جعفر وحده، ولكنه رأي الاسلام، وانما اكثر جعفر من القول فيه ليردّ الناس الى الرشد والصواب، وقد سئل: لم حرَم الله الربا؟ فقال: لئلا يتمانع الناس المعروف. ولقد غلّظ جعفر بن محمد عقوبة آكل الربا ورأى قتله وذلك حيث يقول: آكل الربا يؤدَّب بعد البينة فان عاد أُدّب وان عاد قتل [284]

ولم يغفل الاسلام قطّ عن محاولات اعدائه في كل زمان ومكان ان يُغري اهله بالمال ويُدْفعوا الى المراباة حتى لا يقعوا في احابيل السوء، ولم يحرم الاسلام الربا بين أهله أو بينهم وبين الاقوام ألا ليظل المال عبدا حقيرا، ولا يكون ابدا سيدا مطاعا، وقد تحققت حجة الاسلام في الربا حين وقع أهله عبيدَ المال فاضاعوا كل شيء من حيث لا يستطيعون تحطيم صنمه المعبود.

ومن ثم دعا جعفر بن محمد الى المعروف واكثر من الدعوة اليه وكان من قوله: المعروف زكاة النعم، والشفاعة زكاة الجاه، والعلل زكاة الابدان، والعفو زكاة الظفر، وما اديّتَ زكاته فهو مأمون

---

(284) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥ ـ مجمع البيان ج ٢ ص ٣٩٢

السّلب [٢٨٥] .

الصداقة والجوار

وجعل جعفر بن محمد للصداقة بين النـاس شروطا ، من كانت فيه كان خليقا أن ينسب اليها ، ومن لم تكن فيه لم يكن صديقا ، وتلك : أن تكون فرحةُ الصديق فرحةً لصديقه وزينا ، وألا يجعل سريرته له غير ما يعلن ، وألا يكون المال بينهما سببا للتغيّر والتنكر ، وأن يكون كل منهما أهلا لجميع المودة . ثم اذا حلّت بأحدهما مصيبة ونكبة لم يُسْلمه صاحبه بل يدفع عنه ويحميه .

ومنذ اول أيام الصداقة والمصاحبة يجب ان تلازم هذه الشروط ، فمتى اختار الصديق صديقه ولزمـه أياما لزمت الحقوق ووجبت ، ومتى سارت الايام ازدادت الشروط لزوما والحقوق وجوبا ، وانتقلت الصداقة الى قرابة لها شروطها ولها حقوقها ، وقد رأى جعفر بن محمد صحبة عشرين يوما بين صديقين قرابـة بينهما ، كما رأى أن يلين الصديق لصديقه اذا جفا فان من يصفو ويدوم صفاؤه قليل [٢٨٦]

وامتد بصر جعفر ليجعل المودة وحسن الصـلة خلقـا لبيوت الناس وعادة ، ولم يصر أحبَّ الى نفسه من أن تنتقل الصورة التي

---

(٢٨٥) أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٢

(٢٨٦) نور الابصار ص ١٤٧ ـ الفصول المهمة ص ٢١٠ ـ ق الصداقة والصديق ص ٨ ، ١٠

يراها في بيته من الحب والطاعة والأدب الى بيوت الناس جميعا فتنظمها في سلكها وتصبح الأمة الاسلامية بيتا واحدا وقلبا واحدا.

ولم يصر حسن الجوار والصداقة عند جعفر خلقا يزدان به الفرد ويَفْضُل به غيره ، ولكنه صار عنده خلقا اجتماعيا ، في قدرته أن يخلق مجتمعا متعاطفا فاضلا تعمر به الدور ويفيض الرزق ويكثر الولد . وما لم يتعاطف الناس جيرانا وأصدقاء خربت دورهم وانقطع عنهم الرزق وقل العدد . وكثيرا ما كان جعفر يردد قوله : حسن الجوار عمارة للدار .ومن قَبْله قال ابوه الباقر لأصحابه : أَيُدْخِلُ أحدكم يده في كمّ صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم اذن باخوان ! [٢٨٧]

وآمن جعفر بهذه العقيدة فجعل يَبَرّ اصدقاءه واحباءه كما كان يبر اهله وذوي قرابته ، وآمن بعقيدته هذه يوم كان ناشئا وحين صار اماما ، وقد جعل أصحابه منه بمنازلهم ، الكبير بمنزلة الوالد ، والمساوي بمنزلة الاخ ، والصغير بمنزلة الولد ، كل منهم في طبقته . وظل هذا خُلقه أبد دهره ، وقد حدثوا انه لما مات المفضل ابن عمر احد تلاميذه وبلغه خبر موته قال : رحمه الله ! كان الوالد بعد الوالد . ثم حدثوا أنه لما مات أبان بن تغلب وكان تلميذا له

(٢٨٧) عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٣ ــ في الصداقة والصديق ص ١١

كذلك قال : أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان ! [٢٨٨]

ولقد سيطر حبّ الخير على جعفر فلم يعنف على احد ، وخلص الى جوّ يتأنى فيه و يتبصّر ، و يوجز ولا يسترسل . وبينما كانت النار قد اندلعت في اقطار الشرق فالتهمت الامويين، ودبّ الخلاف بين بني علي وبني العباس ، بل بين الناس جميعا، واخذ يتعاظم كل يوم، وكانت المدينة تغلي وتكاد تتميز من الغيظ ـ بينما كان كل ذلك يشمل الناس والبلدان كان جعفر يلمّ صفوف اهله وتلاميذه و يدعو للخير فترنو اليه الابصار من كل الآفاق .

وقد كان جعفر يبدو مغضيا يغض من طرفه ، ولكنه كان يدرك ما يصير اليه حال الناس اكثر مما يدركون ، وانما يدعهم ويمضي لما هو بسبيله من السيادة بالعلم [٢٨٩] والزهد والفضل والمروءة وكل خصال الخير .

وصايا الامام

وفي السنة الثامنة والاربعين بعد المائة بلغ جعفر الصادق الثامنة والستين من عمره، فلما جاء شوال من هذه السنة . خفت المنية الى الامام بعد ان خلف خمسة ذكور أو سبعة وبنتا واحدة اسمها ام فروة [٢٩٠]

(٢٨٨) محمد بن الحنفية ص ٩٦
(٢٨٩) عقيدة الشيعة ص ١٢٩
(٢٩٠) الفصول المهمة ص ٢١٢ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥

منهم محمد واسماعيل وعبد الله وموسى واسحق وعلي [٢٩١] اما اسماعيل فكان قُبِض قبْل ابيه ، واما موسى الكاظم فكان الذي اوصى اليه بوصايا من الاخلاق بعضها لذات نفسه وبعضها لصلاته بالناس ، ولم يترك موسى الكاظم واحدة من هذه الوصايا الا عمل بها طول حياته ، وكان الامام بعد ابيه .

ثم اوصى جعفر تلميذه سفيان بخصال من المروءة ، وأمره بحفظها فحفظها [٢٩٢] ، ثم اوصى عبد الله بن جندب ومحمد بن النعمان الاحول وعنواناً البصري ، واوصى كلّ من حضر وفاته من اهل بيته رجالا ونساء واحرارا وعبيدا باقامة الصلاة .

ثم اوصى جعفر ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن لما حضرته الوفاة ، والى حميدة البربرية ام موسى ، والى امّ ولدٍ أخرى فكان يحيى يلي أمرَ تركاتِهِ والصغار من ولده [٢٩٣] . ولهذا حدث يحيى عن جعفر قال : حدثني حبيبي جعفر بن محمد .

وتوفي الصادق وابنه موسى في العشرين [٢٩٤] وكان المنصور في السنة العاشرة من حكمه [٢٩٥]

---

(٢٩١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٨٧
(٢٩٢) أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨
(٢٩٣) مقاتل الطالبين ص ١٦٤
(٢٩٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٤
(٢٩٥) عقيدة الشيعة ص ١٤٨

ثم دفن الصادق عليه السلام بالبقيع في قبر دفن فيه ابوه الباقر وجده زين العابدين ودفن فيه الحسن بن عليّ . فلله درّه من قبر يَشْرُف على كل دار تمتلئ بالحياة والاحياء وتفخر بالبطولة والابطال .

مراجع الكتاب

•

(١) ألف با	للبلوي	القاهرة
(٢) أدب الجاحظ	للسندوبي	«
(٣) إسعاف الراغبين	لمحمد الصبّان	«
(٤) أصول الفقه	للخضري	«
(٥) الاعتصام	لأبي اسحق اللخمي	« ١٩١٣ م
(٦) الأغاني	لأبي الفرج	«
(٧) الالحاد في الاسلام	لبدوي	«
(٨) الامام الصادق	للمظفري	العراق
(٩) الامام الصادق ملهم الكيمياء	للهاشمي	حديث الشهر - العراق
(١٠) الامام علي	لمحمد رضا	القاهرة
(١١) الانصاف	للباقلاني	«
(١٢) بحار الانوار	لابن التقي	العراق
(١٣) البداية والنهاية		القاهرة
(١٤) تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي	«
(١٥) « الخميس	للديار بكري	«

(١٦) « الطبري القاهرة

(١٧) « اليعقوبي العراق

(١٨) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية لبدوي القاهرة

(١٩) التشريع الاسلامي للخضري «

(٢٠) التطور والتجديد ... لشوقي ضيف «

(٢١) التنبؤ بالغيب لتوفيق الطويل «

(٢٢) توحيد المفضل والاهليلجة النجف

(٢٣) تيسير الوصول للشيباني القاهرة

(٢٤) جابر بن حيان وخلفاؤه لمحمد فياض سلسلة اقرأ «

(٢٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي دار الكتب «

(٢٦) جامع كرامات الأولياء للنبهاني «

(٢٧) الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلي «

(٢٨) الحكمة الخالدة لبدوي «

(٢٩) الحور العين لأحمد بن فارس «

(٣٠) حياة الحيوان للدميري «

(٣١) الاخبار الطوال للدينوري «

(٣٢) الخراج لأبي يوسف «

(٣٣) الخراج للقرشي «

(٣٤) خزانة الأدب للبغدادي «

(٣٥) الخلق والاعتبار للجاحظ حلب

(٣٦) الخليفة الزاهد للمؤلف بيروت

(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية — ترجمة — القاهرة
(٣٨) دائرة المعارف — للبستاني — « ١٨٨٣ م
(٣٩) الدر المنثور — لزينب فواز — « ١٣١٢ هـ
(٤٠) رسالة البراهين على وجود الله — لحنا دميان — مخطوطة بيروت
(٤١) الروض الباسم — لأبي عبد الله اليماني — القاهرة
(٤٢) زهر الآداب — للحصري — «
(٤٣) زينب عقيلة بني هاشم — للمؤلف — بيروت
(٤٤) زين العابدين — « — بيروت
(٤٥) شخصيات قلقة في الاسلام لبدوي — القاهرة
(٤٦) شذرات الذهب — لابن العماد — «
(٤٧) شرح المنار — لعز الدين ابن الملك — استنبول ١٣١٥ هـ
(٤٨) صفة الصفوة — لابن الجوزي — حيدر آباد الهند
(٤٩) طبقات الصوفية — لأبي عبد الرحمن السلمي — القاهرة
(٥٠) الطبقات الكبرى — للشعراني — «
(٥١) طريق الهجرتين — لابن قيم الجوزية — «
(٥٢) عجائب المخلوقات — للقزويني — «
(٥٣) عقيدة الشيعة — ترجمة — «
(٥٤) أعيان الشيعة — للسيد محسن الأمين — بيروت
(٥٥) عيون الأخبار — للدينوري — القاهرة
(٥٦) غاية الاختصار — للشريف تاج الدين — « ١٣١٠ هـ
(٥٧) فرق الشيعة — للنوبختي — النجف

(٥٨) الفصول المهمة	لابن الصباغ	النجف
(٥٩) في الصداقة والصديق لأبي حيان		استنبول
(٦٠) الكامل	لابن الأثير	القاهرة
(٦١) الكامل	للمبرد	»
(٦٢) الكشكول	للبهائي	ايران
(٦٣) لسان الميزان	للعسقلاني	حيدر آباد الهند
(٦٤) لوائح الانوار البهية للسفاريني		القاهرة
(٦٥) مجمع البيان	للطبرسي	صيدا ـ لبنان
(٦٦) مجلة السنابل	للاكليروس المسيحي	»
(٦٧) محمد بن الحنفية	للخطيب الهاشمي	سبهر ايران
(٦٨) المدخل	لابن الحاج	القاهرة
(٦٩) مذكرات في تاريخ الفلسفة	لعناني مخطوطة	»
(٧٠) مطالب السئول	لمحمد بن طلحة	النجف
(٧١) المعارف	لابن قتيبة	القاهرة
(٧٢) معجم الادباء	لياقوت	»
(٧٣) معجم البلدان	»	»
(٧٤) مقاتل الطالبيين	لابي الفرج	»
(٧٥) الملامتية	لعلي عبد الواحد	»
(٧٦) الملل والنحل	للشهرستاني	» ١٢٦٣ هـ
(٧٧) النجوم الزاهرة	لابي المحاسن	دار الكتب القاهرة
(٧٨) نزهة الجليس	للعباس الموسوي	القاهرة ١٢٩٣ هـ

(٧٩) نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي لعلي حسن عبد القادر القاهرة
(٨٠) نقد العلم والعلماء لابن الجوزي القاهرة
(٨١) نور الابصار للشبلنجي »
(٨٢) وفيات الاعيان لابن خلكان »

الفهرس

●

كتب للمؤلف

•

(١) النكتة المصرية

(٢) يوم وليلة خلافة ابن المعتز

(٣) ابن المعتز علمه وادبه

(٤) عبقرية ابي تمام

(٥) « البحتري

(٦) ابو طالب شيخ بني هاشم

(٧) زينب عقيلة بني هاشم

(٨) زين العابدين علي بن الحسين

(٩) ملحمة الفالوجة

(١٠) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز

(١١) فلسفة الزكاة عند المسلمين

(١٢) جعفر بن محمد الامام الصادق

يصدر قريباً جداً

أسرار الخلود في الدين الاسلامي

وهي الرسالة الأولى من سلسلة « من الفكر الاسلامي » للمؤلف وتصدرها تباعا « دار الشرق الجديد » في بيروت .

DATE DUE